الأمير خالد الجزائري

بقلم: بوعلام بساىح

عن الزميلة المسار الجزائرية

لكل انسان قدر ومصير. وكثيرا مايكون لهذا القدر او المصير آيات وارهاصات. وقد هيات الاقدار الامير خالد لان يكون له شان واى شان. ومن آيات ذلك انه ولد حفيدا للامير عبد القادر، ووليدا لابنه خالد بن الهاشمي، وشهد النور يوم ٢٠ فبراير سنة ١٨٧٥ بدمشق الفيحاء، اى بعد أربع سنوات من ثورة المقراني التي كانت إمتدادا لملحمة عبد القادر وقبل ست سنوات من ثورة أبي عمامة التي كانت احدى محطاتها البارزة أيضا، ونشا في العاصمة السورية التي كانت آخر مرحلة من مراحل اغتراب ذلك القائد المغوار الذى حارب فرنسا حتى سنة ١٨٤٧، وترعرع في ظل هذا الاسم المهيب، وفي كنفه النجيب.

لقد ساق القدر خالدا عبر طريق قطعه بخطى وئيدة في بادىء الامر، طابعها الخجل والحياء، ثم بخطى مترددة حينا، وجريئة حينا آخر، وانتهى به المطاف فاذا به رجل يفرض نفسه على وجدانه، وعلى محيطه، جزائريا كان هذا المحيط أم فرنسيا.

تلقى تربيته الاولى، وهو طفل صغير، كأى أمير آخر من بني عمومته، في جو يطغى عليه احترام القيم والمثل العليا، ومراعاة متطلبات الحياة وشؤونها. وهو احترام لاتفتأ تقلبات الزمن وظروفه كالتي عاشها الامير عبد القادر نفسه تذكره به، وترسخه في ذهنه، ثم هذا الاغتراب المفروض عن الجزائر، والمنفى المقدور الى سوريا، بعد مقامين اثنين في فرنسا، وفي تركيا، أحدهما معاد بارد، والاخر حذر مرتاب. على أنه ليس هذا باغتراب حقيقي مادامت دمشق، ذلك الموطن الجديد، وأرض الاخوة العربية الاسلامية قد استقبلته. انه في وطنه، وبين أهله وذويه، ولاينغصه سوى الشوق والحنين الى الوطن الضائع والارض السليبة.

وفي ظل الصورة الاميرية السامية التي تجر وراءها ذكريات حية راسخة عن مقاومة مجيدة باسلة، والسمعة التي زادتها أسطورة الشرق تضخيما وافاضة، وجد الفتى خالد، وعيناه تتقدان ذكاء، وتتحرقان شوقا الى المعرفة، ومزيد من الاطلاع، لدى جده رئيس الاسرة المالكة. شخصية القائد الذى لايكل ولايمل، والفيلسوف الورع الجذاب، والشاعر الذى يصغى اليه كشاعر للفرس، وشاعر في نفس الوقت للاخلاق التي كان يتحلى بها الفرسان القدماء.

كان الامير عبدالقادر كثير العطف والحنو على خالد، شديد الرعاية له والاهتمام به الى درجة أنه قال يوما لابنه الهاشمي، وهو لاشك كان يشتم في حفيده اقتدارا خاصا على مغالبة القدر ومقارعة الاعداء: " يجب أن تعلم هذا الفتى حرفة السلاح".

هنا يبدأ مجرى حياته المهنية، ومدارمارصد له من مهام نضالية. فبعد مرحلة دراسية تحت اشراف كبار علماء دمشق، وآخرين مثلهم في ثانوية "لويس لوغران" (L. le grand) في باريس، دخل خالد مدرسة "سان سير" (St Syr) العسكرية، ولكنه دخلها بصفة "أهلي" (indigène) بصورة استثنائية "ريثما يتجنس بالجنسية الفرنسية".

لكن هذا الشاب اليافع كان قد اختار وجهته وهويته من قبل، اذ انه صرخ قائلا: "انني عربي، وأريد أن أبقى عربيا، لا أتخلى أبدا عن قناعاتي ومطامحي". كان ذلك سنة ١٨٩٣، وهكذا استقال من المدرسة سنة ١٨٩٥ ثم استأنف الدراسة في السنة الموالية.

وسرعان مابارح الشاب مدينة باريس ليلتحق بمدينة الجزائر حيث تحقق حلم قديم طالما راود أباه الهاشمي. ذلك أن هذا الاخير كان معروفا بمعاداته للسلطات العثمانية، ولان قنصل فرنسا الذى كان يتعهد علاقاته باسرة الامير ويحيطها بكل عناية ورعاية نصح سلطات باريس بارتضاء استقبال هذا الحليف "المزعج" لتركيا بمدينة الجزائر، والا فان أقواله وتصرفاته ستؤدى الى احناق الباب العالي واغضابه.

هكذا جاء الهاشمي اذن الى مدينة الجزائر، والتحق به خالد

لكن خيبة الامل كانت كبيرة .فبدلا من أن تستقبله الادارة الفرنسية باعتباره احد انجال عبد القادر، فتخصه بما يستحقه مقامه من الاحترام والتقدير، اذا بها تستقبله ببرودة واستخفاف بل وباسلوب يقارب الاهانة. وكان السبب في هذا المسلك التنكيدي من الادارة الفرنسية ،هو مايستثيره فيها من حذر وارتياب، رجل قادر على استرجاع سمعة ابيه ونفوذه لخوض غمار كفاح جديد، احس خالد بشيء كثير من الاهانة والاذلال، فهو ان كان ضابطا صغيرا من المنتسبين الى "سان سير" ( ) لايزيد على كونه ضابطا من الدرجة الثانية. وكان هو ايضا محل رقابة او ملاحظة، تلاحق لقاءاته ومحادثاته، وتتبعه اينما حل، وحيثما ارتحل، الى درجة ان اسرة الهاشمي تلقت امرا في صائفة عام ١٨٩٤ بالارتحال الى بوسعادة. ومع ذلك فان حوالي هذه المدينة قبائل اولاد عامر التي كانت من اشد انصار الامير، كما كانت قبائل ونوغة سنة ١٨٧١ اي في زمن اقرب الى الزمن الذي نحن بصدد الحديث عنه من اشد رفاق بومزراق المقراني حماسا.

كذلك يمكن ان تنسل الى التاريخ مناطق خفية لايفقه المنطق فيها شيئا، ولقد كان في وسعه ايضا ان يلتقي في بوسعادة "ايتيان دبني" (E. Dinet) ذلك الرسام الفرنسي، صديق العرب، الذي دخل الاسلام، واصبح بذلك اخا في الله وفي الدين.

ادرك خالد، وهو يواجه هذه العقبات، ويصطدم بجدران الحذر والارتياب، انه لابد من مواصلة الكفاح لاثبات الذات، وفرض الوجود. وارسل الى المغرب الاقصى سنة ١٩٠٧ حيث نال شاراته العسكرية كنقيب، وهي اعلى مرتبة عسكرية يسمح بها "للاهلي" (indigène) في ذلك الوقت. لكن النقيب خالد لم يكن ذا مراح متساهل او ملائم. فقد تدخل في امور سياسية. وكان على المغرب الاقصى بالفعل، بموجب قرارات مؤتمر الجزيرة الخضراء سنة ١٩٠٦ ان يتخلى لفرنسا واسبانيا عن حق الشرطة في ثمان من الموانئ المغربية، على الرغم من المعارضة الشديدة التي ابدتها المانيا. والسبب في هذه الوضعية الجديدة هو سلطان المغرب، مولاى عبد العزيز الذى كان ملكا يفتقر الى كثير من العزم والحزم، واقعا تحت نفوذ مستشاريه الاوروبيين، وحاشية فاسدة. وحل محل مولاى عبد العزيز اخوه مولاى حفيظ باسم الكفاح ومحاربة الاجنبيين. وانتصر الامير خالد لهذا الاخير جهارا وعلى رؤوس الاشهاد، وماكان ذلك ليروق الماريشال ليوتي (lyautey) الحريص قبل كل شيء على مصالح فرنسا، فابعده عن المغرب ،وارسله الى حامية مدينتي الجزائر والمدية ليذوق مرارة الضجر والسآمة فيهما.

كانت مرتبة النقيب "الاهلي" اعلى مرتبة عسكرية يرقى اليها خالد. ومن البديهي انه التجئ اليه ،والى استخدام سمعته ونفوذه سنة ١٩١٤، لقاء مكافآت، لاعادة الجنود الجزائريين المتمردين الى ساحة القتال. واستحق بذلك تنويها "بولائه واخلاصه" في جلسة عقدها مجلس الشيوخ الفرنسي سنة ١٩١٩. ولكنه كان هذه المرة اشد مايكون اقتناعا ،واعمق احساسا بانه ظل ولايزال "عربيا" "اهليا" يمكن ان يتلقى بل ويجب ان يتلقى تشريفا بالقتال في سبيل فرنسا :لااكثر.

وابتداء من تلك الاونة ،بدأ كفاح خالد السياسي، بصورة منهجية ورشيدة ،لاكما كان كفاحه من قبل عبارة عن ردود فعل متفرقة وظرفية.

باي سلاح تراه يخوض هذا الكفاح؟ لقد اختار خالد ميدان الشرعية ،اي مواجهة الاستعمار ومفاجاته باستعمال اسلوبه بالذات والرجوع الى مؤسساته الخاصة.

بدأ منذ سنة ١٩١٩ بضبط قائمة رغبات الجزائريين المستعجلة "الغاء القوانين الاستثنائية، تساوي الجميع امام الحق تمثيل الجزائريين في المجلسين (مجلس النواب، ومجلس الشيوخ) ،اجبارية التعليم باللغتين الفرنسية والعربية ،الغاء نظام الاحواز (البلديات الممتزجة)".

لكن، لما كان المعمرون من المستوطنين يطالبون بذاتية السلطة الاستعمارية الكاملة اي بالحكم الذاتي ازاء "الوطن الام" (فرنسا) وهذا يعني تولي اقلية من الاوروبيين النازلين بالجزائر زمام الامور، وسحقهم الاهالي سحقا كاملا، طالب خالد بالحاق العمالات الجزائرية الثلاث بفرنسا بلا قيد ولاشرط.

وشارك في الانتخابات المحلية بمقتضى اصلاحات سنة ١٩١٩ وفازت قائمته فوزا ساحقا. لكن الانتخابات الغيت بقرارا من عامل العمالة بدعوى ان الحملة الدعائية التي سبقتها كانت ذات نزعة دينية طرقية متعصبة.

أعيدت الانتخابات، وتجدد الفوز فيها والانتصار. وهكذا ولد الحزب "الوطني المرابطي" الا يكن في واقع الناس، ففي اذهان المستوطنين على الاقل. وكان لابد اذن من اللجوء الى مختلف الاجراءات، واساليب الاعاقة بل وحتى التهديد والترهيب لشل حركة المنتخبين من "عناصر الشباب الثورية" وابطال فاعليتهم

ادرك خالد ذلك فنشر في جريدته "الاقدام" المقطع الاتي، اي واجب الاستقالة.

رسالة الى رئيس المجلس العام لعمالة الجزائر، الى رئيس المندوبيات المالية" على ان الحقيقة هي انه من الصعب على بعض الناس في الجزائر، بلد الامتيازات الكبرى ،ان يتصوروا امكان تمتع الاهالي بالحريات المحلية شانهم في ذلك شان الاوروبيين .ومع ذلك فليس في الامير مايدعو الى التخوف ،لان هذه الحريات تافهة لاشان لها، ووهمية اذا ماقورنت بالواجبات المفروضة فرضا، والتضحيات المبذولة بسخاء. ثم أليست جميع القوانين التي تهم الاهالي وتخصهم عرضة للتعطيل بمجرد قرار يصدره الوالي العام فيحرفها عن هدفها الحقيقي؟.

"ولما كنا أقلية مغمورة وسط أغلبية طاغية ، وكان العدد الكبير منا تابعا لغيره ، فان أصواتنا وأعمالنا أضحت باطلة بطلانا كليا . ومن ناحية أخرى ، فانه لما كانت للادارة اليد العليا على جميع القرارات الصادرة عن المجلسين ، نتيجة لتركيبة المجلس الاعلى الذى تتكون غالبية أعضائه من الموظفين ، فاني لا أرى فيما يخصني أية فائدة أو فاعلية لوجودنا في هذين المجلسين" .
(الاخبار ٢٤ مايو ١٩٢١)

لعبت جريدة "الاقدام" التي كان يحرر فيها مقالاته باللغتين العربية والفرنسية دورا بارزا في الحياة السياسية لذلك العهد .

ولما كان خالد ، قد آثر التقيد بأرضية القانون ، فانه فتح لنفسه سبل تحريك مشاعر القلوب ، وتجنيد الافكار . وقد كسب بذلك تعاطف عدد كبير من الاحرار في فرنسا وحتى في الجزائر أمثال الناشر "باريكاند" ( ) الذى نشر في مطلع القرن مخطوط الكاتبة المتوفاة "ايزابيل ايبرهاردت" ( ) تحت عنوان "في ظل الاسلام الدافئ" . واستطاع أن يستميل اليه عددا كبيرا من الشباب الجزائرى المثقف ، وأن يجتذب الى صفه جماهير الفلاحين .

هكذا أصبح النقيب "الاهلي" رمزا للنضال والكفاح في نظر الشبان ، ومثلا يحتذى للارستقراطية النضالية بالنسبة الى الوجهاء والاعيان ، وشخصية أميرية بارزة في خدمة الشعب ، واستمرارا معتبرا لكفاح عبد القادر الذى مايزال يستثير في نبضات قلوب السكان المقهورين آمال شعب يرفض الاستسلام .

عقد مؤتمر "فيرساى" ( ) الذى ضم زيادة على الفرنسي "جورج كليمانسو" ( ) ، والبريطاني "جورج اللويد" ( ) وخاصة الرئيس الامريكي "وودرو ويلسون" ( ) صاحب فكرة جمعية الامم ، والحائز على جائزة نوبل للسلام ، فتقدم اليه الامير خالد على رأس وفد للمطالبة بمنح الجزائر وضعية تحظى بالحماية في جمعية الامم المزمع انشاؤها . ولئن لم يحصل من المؤتمر على شيء يذكر ، فانه أثار صخبا كبيرا وعاد الى الجزائر . وفي كنانته اعلان الرئيس ويلسون عن مبدأ ترك أصداء بعيدة :

"ان شعبا يخضع لقانون لم يشارك في صياغته شعب "مستعبد" هذا اذن تأكيد واثبات لمبدأ ثورة ١٧٨٩ ، وبالتالي فهو مبدأ عزيز لدى فرنسا .

تابع خالد عمله ونشاطه السياسي بتنظيم عدة ندوات في مختلف أنحاء البلاد من الشرق الى الغرب ، ومن الشمال الى الجنوب . ومن النوادر التي تروى في هذا الصدد أنه برمج في يوم من الايام عقد ندوة في مدينة بسكرة ، التي تعد باب الصحراء ومدينة بعيدة عن التيارات السياسية ، فانتقل السكان على ظهور الجياد والبغال والجمال من أماكن تبعد عن محيط بسكرة بما يزيد على عشرين كيلومترا للاستماع اليه ، والهتاف له والتصويت على لائحة سياسية .

كانت المواضيع التي طرقها الامير خالد في خطبه ومقالاته عديدة ، فهي تتناول الدفاع عن ضحايا الجوع ، والحرمان من نعمة التعليم ، وسياسة التفقير ، وتجنيد السكان للزج بهم في أتون الحرب ، وتقديمهم طعمة للمدافع ، والاستهانة بالدين ومسخ الذاتية الثقافية ، الخ . ونحن واجدون في طيات هذا السجل الحافل من الاعمال مطالب كثيرة ، وهدايات وارشادات . والاستشهاد بالاسلام ، باعتباره دعامة دفاعية ، وبوتقة حضارية ، أمر وارد باستمرار في أقوال خالد وكتاباته ، بل وقد تجاوز حدود المطالبة بالانتماء الى هذا الدين وحضارته ، فدعا الى واجب تقويم الحضارة الاسلامية ، والتعريف بأفضالها على الحضارة العالمية . لقد كان ذلك هو الملاذ المشروع والرفيع للذات "الجماعية" في الامة ، وفي الحضارة المكتشفة من جديد بل المستردة ، الا نجد في هذا استشعارا لذكريات ، ومباحثات دمشقية كانت تدور تحت رعاية الامير عبد القادر ، ومطالعات مستوحاة من مذاق التاريخ؟ الا نجد في هذا تعلقا أساسيا بالامجاد الضائعة التي كانت تطرح بذاتها مشكلة سقوطها ، لان الذين كانت عهدة تشريفها ورعايتها منوطة بهم لم يحسنوا الحفاظ عليها؟ دمشق ، بغداد ، قرطبة .

لذلك طلب من المثقفين ورجال الفكر القيام بأبحاث عن الماضي ، واعداد تراجم مشاهير رجالات الاسلام ، والتنويه باكتشافاتهم وابتكاراتهم واجه بها الاختراعات المدهشة التي تنشرها أوروبا الغازية والتي لا يؤمن أن تريد عقدة النقص في صفوف المغزوين خطورة وعمقا .

ثم ، ماذا صنع هذا الغازى الدخيل؟ وماذا فعله لنا؟ الجواب على هذا السؤال نجده فيما دبجه يراعه في الفقرة الاتية :

"لم يفعل الغازى المحتل شيئا لنا ، وماتزال المجاعة تقف أمام أبوابنا ، وتترصدنا . فنحن انما نسلك فقط سككا حديدية وطرقا ، ومراكز مخصصة كلها لكبار المعمرين من المستوطنين ولئن كانوا يبنون لنا بعض المدارس ـ الاكواخ ، فانهم ، بالمقابل ، يسلبوننا أراضينا . انهم ينتزعون منا أبناءنا ، وينسفون اقتصادياتنا ، وينقلون الينا معاقرة الخمر ، وتعاطي القمار ، وينشرون في أوساطنا علل من يزعمون أنهم متحضرون ورذائلهم "وماذا نقول عن حقوق الاهالي؟ انها حقوق منكورة وغير معترف بها ، لايصلح الاهلي الا لان يكون جنديا ، ولايليق الا لدفع ضرائب باهظة ، ولو أدى به الامر الى بيع آخر بقرة له .."
"ولايقل القمع الفرنسي عن قمع الالمان أو الانكليز : ولايسعنا بعد كل هذه المظالم الا أن نتمنى الموت . واذا كانت سياسة الادارة المحلية قائمة على مسخ اللغة والدين وتدميرهما ، ومبنية على تفقير السكان ، فانها قد أفلحت كل الفلاح ، لان السكان

عمهم الجهل، وانتشرت فيهم الامية، والدين قد وهن وضعف أمره، والفقر قد انتشر وكاد يغدو شاملا".

وحينما قام اليكساندر ميليراند" (A. Millerand) رئيس الجمهورية بزيارة للجزائر، طرح خالد المسالة الجزائرية جهارا وعلى رؤوس الملا، وطالب بانصاف الجزائريين ومنحهم تمثيلا عادلا في البرلمان الفرنسي. وكان الجواب بالرفض.

وعندما علم بانتصار اليسار الفرنسي سنة ١٩٢٤ بادر الى مراسلة الرئيس "هيريو" (Herriot) محددا المطالب الجزائرية ومبينا اياها بالتفصيل. وتتمثل تلك المطالب فيما يأتي :

١) التمثيل في البرلمان بنسب متكافئة مع أوربيي الجزائر.

٢) الغاء القوانين والتدابير الاستثنائية، والمحاكم الزجرية، والمجالس القضائية الجنائية، والرقابة الادارية الغاء كاملا ونهائيا، مع العودة الى القانون العام بدون قيد ولاشرط.

٣) المساواة في الحقوق والواجبات مع الفرنسيين فيما يتعلق بالخدمة العسكرية.

٤) التحاق الاهالي الجزائريين بجميع المراتب والمناصب المدنية والعسكرية دون أي تمييز آخر غير الاستحقاق والمؤهلات الشخصية.

٥) تطبيق القانون الخاص باجبارية التعليم تطبيقا كاملا على الاهالي، مع حرية التعليم.

٦) حرية الصحافة وتأسيس الجمعيات.

٧) تطبيق قانون الفصل بين الكنيسة والدولة على الديانة الاسلامية.

٨) اصدار العفو العام.

٩) تطبيق القوانين الاجتماعية والنقابية على الاهالي.

١٠) منح العمال الاهالي على اختلاف اصنافهم حرية مطلقة للتوجه الى فرنسا.

وقارنت الدوائر الادارية الاستعمارية والصحافة الناطقة باسمها برنامج خالد بالبرنامج الذي وجهه الزعيم الوطني زغلول باشا الى بريطانيا لما بينهما من تشابه كبير، واذا كانت الانظمة الاستعمارية تتفق في بعض الوجوه فانها تختلف في وجوه أخرى. ولئن كان الامير خالد متاثرا بالانتفاضات السياسية التي كانت تهز مصر، فانه لابدع في ذلك، مادام المسعى مسعى جزائريا لانه ينبثق مباشرة من السياق الجزائري.

لم يجد خالد بدا، امام تطرف حكومة باريس وتعنتها، من تسمية الاشياء باسمائها فحل التصريح محل التلميح، وأفسحت المماحلات الدبلوماسية المجال للاحكام القاطعة والقرارات الفاصلة.

وكان القرار الاول هو الاتي : " اذا كانت سياسة الادارة المحلية مبنية على مسخ اللغة، وهدم الدين، وتفقير السكان فانها قد نجحت في ذلك كل النجاح لان السكان جاهلون، والدين قد أضعف، والفقر قد أشيع وكاد يصير عاما".

حينئذ، سلطت عليه ألسنة الحقد والغضب فأمطرته بكل لفظ قاذع وجارح، كالذى فعله "مورينو (Morinaud) نائب قسنطينة البرلماني الذى سعى الى تعبئة مجلس النواب الفرنسي واثارته على "حفيد عدو فرنسا"، كما وصفه الوالي العام في الجزائر "تيودور ستليق" (T. Steeg) بانه "الرئيس الاوحد للجنس المعادى لفرنسا".

وماكان من أمر خالد، والحالة تلك، الا أن يلقي بنفسه جسما وروحا في المعركة، فقد حان الوقت في نظره لاحراج الخصم ودفعه الى اتخاذ أقصى التدابير حتى تتحول السلطات المحلية عن السبل التي كانت تسلكها حتى ذلك الحين مستمدة من "مسلك الوطن الام السخي" مع ابنائه المعارضين، وماهم الا ضالون، فتلقي باوراقها وتكشف عن مقاصدها، وكتب يقول.

"يوجه اليك أصبع الاتهام باستباق الثورة، لانك كتبت : بان هناك فقراء يموتون جوعا. وتوصم بانك فرنسي عنيد عندما تطالب بالمساواة بين الناس. اذن، فلنكن فوضويين، ولنكن بلشفيين ومناهضين لفرنسا، ووطنيين، وكل ماشئتم، لكن علينا أن نبقى رجالا". هذا ماكان يروق مواطنيه ويثلج صدورهم.

انها كلمات ثلاث أثارت اعجاب المضطهدين، واشاعت البلبلة في المعسكر المعادى. وكان حينئذ عرضة للتقريع والتخويف، والتهديد بالحبس، وبالنفي النهائي، واعادوا الى ذاكرته أن جده أيضا كان مضطرا الى الاستسلام في نهاية المطاف على الرغم من نفوذه وسمعته، ومما حققه من انتصارات، واحرزه من معارك هنا وهناك، وعلى الرغم من القبائل المكهربة المتحمسة التي سارت تحت لوائه. وعليه فمتى كان القتال غير متكافئ لامناص من أن تكون القضية خاسرة سلفا، لاسيما وان نهاية الربع الاول من القرن العشرين شهدت تمكن الاستعمار ورسوخ أقدامه.

وماكان منه حينئذ الا أن يجيب قائلا: "لن تستطيع تدابيركم الاستثنائية التي اتخذتموها ضد هؤلاء واولئك، أن تفعل شيئا فالاحداث القريبة" ستكتسح كل هذا العفن فقد انقضت ازمان وحان الاوان.. ان فرنسيي الجزائر ليتطلعون بمرارة شديدة الى اليوم الذى سيضطرون فيه الى تهيئة حقائبهم للعودة الى بلدهم الاصلي، والمستقبل بالنسبة اليهم غامض وغير موثوق به، والافق سديمي مظلم، والعاصفة قريبة، وقد اخذوا منذ الان يطلقون حناجرهم بالبكاء والنحيب. انهم وايم الله. لعلى حق فاي شيء أشق على النفس، في الواقع، من الاضطرار الى مغادرة بلد كانت تعيش فيه عيشة السادة، مغادرة بلا امل في الرجوع، ومبارحة بلد تكتسب فيه الثروة بدون كد ولاتعب

يخدمها فيه اقنان وعبيد ضائعون، اني لاشفق عليهم لما هم محرومون منه، ولذلك الافق القاتم الذى يواجههم ولاتلوح لهم منه اية بارقة امل او سرور".

تعرض خالد لضغوط سلطت عليه من كل جانب: فقد جندت بالمناسبة تلك الفئة القليلة من المثقفين "الفرنسيين" التي كانت تتحدث عن المساس بالوطن الام..

وقوبل خطابهم بكل احتقار، وصار الخزى والعار يلاحقانهم، وينتشر ذلك في اوساط الناس عن طريق الوشوشات الساخرة المزدرية. وساعد هذا الظرف الاجتماعي والسياسي في اعطائه طاقات جديدة، وفي شحذ قلمه. وكان الجو مكهربا تكفي فيه اية شرارة لكي تتحول النار الى سعير.

نفي خالد الى الاسكندرية، ولكنه ابى ان يقيم فيها، ولم يكن رحيله من الاسكندرية ليتم بدون متاعب. وكانت السلطات القنصلية الفرنسية تراقبه عن كثب، فحاول الفرار من المدينة والافلات من هذه الرقابة باستعمال جواز سفر مزيف مما كلفه حكما بالسجن لمدة خمس سنوات، اصدرته في حقه المحاكم القنصلية، وهو حكم الغته، في وقت لاحق، محكمة الاستئناف في "ايكس انبروفانس (Aix en provence). على انه استقبل في مصر بكل تبجيل واكرام كما يستقبل وطني كبير، وزعيم من كبار زعماء القضية العربية.

وكان "التحذير" الاتي بيانه بمثابة نبوءة جديرة بالملاحظة.

"احذروا، فلقد دخلنا، ولمدة طويلة جدا، في حلقة من الحروب الوطنية، والدولية، ومالى ذلك من الحروب والفتن الاخرى.. واذا استمررتم في جعل حياة مواطنينا الاهالي حياة لاتطاق، فان الانفجار لن يكون الا اشد عنفا. انكم لتدفعون بالاهالي الى الياس والقنوط، وتثيرون فيهم مشاعر الغيظ والحنق، ويوم يستيقنون انه لاشيء يكسبونه معكم، وانه لاشيء يخسرونه، رغم كل شيء، اذا ماحملوا السلاح، لانهم اضاعوا في الواقع كل شيء منذ زمن طويل ولايزالون، ويوم يقر في اذهانهم ذلك، ويعلمون انه بسببكم، وبفعل من سياستكم، فسيقولون لكم، ونقول لكم نحن الاهالي عندما تواتينا اول فرصة.

"ماذا جئتم تصنعونه هنا؟ عودوا الى بلادكم". لاتتعنتوا فيما تمارسونه من قمع واضطهاد: انظروا ماذا حدث في ايرلندة. احذروا ان يصرخ في وجوهكم يوم تكثر مشاغلكم، وتتراكم همومكم، وتقصرون عن مواجهة الاحداث: "اخرجوا من هنا". ولن تستحقوا ماحدث".

"انظروا مايحدث في ايرلندة"؟ ان الامير خالد، وهو المطلع على المشاكل الدولية، انما يذكر هنا بحصول ايرلندة على الاستقلال سنة ١٩٢١ على الرغم من سياسة طويلة نهجتها بريطانيا في ارض اشبه ماتكون عناصرها بعناصر الجزائر. انه تنبيه يكاد يكون تحذيرا. ولما كانت كتاباته يحللها ضباط الولاية العامة تحليلا دقيقا، كان شبح الخطر "الخالدى" يزداد تهديدا وتفاقما.

وهنا نصل الى طور حرج، دقيق، لارجعة فيه من اطوار عمل الامير خالد. ولم تعد نظرته البعيدة محصورة في مجرد المواجهة بين الاستعمار الفرنسي والجزائر العربية. بل ان الذى حدث هو فصل جديد في هذا العمل السياسي، فقد التقى بالشيوعيين الفرنسيين، واجتمع بممثلي مجموع الطبقة الشغيلة الفرنسية، ومع انه من الصعب ان نتصور - من الوجهة السياسية - اميرا ارستوقراطيا يمد يده الى اناس فلسفتهم ابعد ماتكون عن الاسلام، الا انه ادرك مدى اهمية الغاية.

ذلك انه انتهى به المطاف، من المنفى الذى اجبر عليه جبرا، الى كسب اقصى قدر من الدعم والتاييد لعمله. فقد ابعد بادئ ذى بدء الى الاسكندرية التي رفض الملك "لويس فيليب" (L. Philippe) في وقت مضى ان تكون منفى لجده عبد القادر، على الرغم من الالتزام الذى التزم به نجل هذا الملك "دوق دومال" (D. d'Aumale). ثم قدم الى باريس ليقيم فيها موقتا لان باريس كانت صميم الموضوع، وقلب المشكلة ذاتها. ففي باريس تيارات تحررية كانت تنظر بعين الرضى الى عمله، ومنهم شخصيات شيوعية مثل "فايانت - كوتورييد" (V. Couturier)

الذى درس الوضع في الجزائر، وكان على دراية جيدة به. وفيها ايضا تيارات كاثوليكية تتـ[illegible] عناصرها المفكرة على الحوار وعلى مبادئ العدل، والتي لم تنس ان الامير عبد القادر سبق ان انقذ سنة ١٨٦٠ نحو اثني عشر الف مسيحي في سوريا من الموت وفيها ايضا خليط من المهاجرين ينتمون الى طبقة بروليتاريا مجثوثة الاصول، ولكنها واعية كل الوعي، وقد ادرك الامير خالد ضرورة تحسيسها على نفس قاعدة تضامنها الطبيعي والموضوعي وهذا مافعله بالضبط.

اصبح الخطاب السياسي ذا لهجة جديدة، وابعاد اوسع، واسس تاريخية اعمق وارسخ. ولبس الكفاح لباس الشمولية، وصار يطرح مشكلة تصفية الاستعمار، وتحرير الشعوب، واندرجت في المسعى حتى البلدان التي لم تكن من قبل مسجلة في قائمة المستعمرات. واذا كانت وضعية البلدان قد تختلف احيانا، فان وضعية الشعوب وضعية "واحدة" في واقع الامر: انها وضعية مستعمرين (بالفتح).

ايها اللبنانيون، والسوريون، والجزائريون، والتونسيون، والمراكشيون، ياابناء الالزاس، وابناء رينان (Rhénan) ايها المستعبدون من كل الاجناس والاعراق، ومن جميع الملل والاديان الذين ينوءون تحت نير بعض الاجلاف الافظاظ، وبعض المترفين البرجوازيين المنتحلين لانفسهم حق تدنيس تراب اوطانكم العزيز، ان لكم في بعض مواطن الحرية بالخارج اصدقاء متنورين".

انها لنظرة رجل سياسي، بعيدة الغور، واثقة من نفسها وانه لمسعى، لئن كان عاجزا عن حل مشكلة من المشاكل بمفردها، أي مشكلة الشعب الجزائري، فانه يطرح مشاكل أخرى أملا في تسويتها جميعا.

نظم في التاسع عشر يوليو من سنة ١٩٢٤ تجمعا شعبيا كبيرا دعي اليه جميع الرعايا من البلدان المستعمرة. فهرع للاستماع اليه آلاف من المنبوذين المحقورين. وما ان ظهر خالد على المنصة حتى تعالت الاصوات بالهتاف له، وبالتصفيق والتحية، ثم أجمع الحاضرون وأقروا بصوت واحد جدول الاعمال الاتي:

"ان المنحدرين من المستعمرات، المجتمعين في شارع "بلانكي" (Blanqui) بتاريخ ١٩ يوليو، بناء على دعوة من اتحاد المستعمرات المشترك، ليعربون عن مشاعر التضامن مع اخوانهم أهالي الجزائر فيما يتقدمون به من مطالب، ويطالبون لجميع السكان في كافة المستعمرات بالغاء نظام "الانديجانا" الشنيع، وباقرار حرية الصحافة وتأسيس الجمعيات، واصدار العفو العام عن كل ضحايا القمع الذى يمارسه القضاء وبتطبيق القوانين الاجتماعية والنقابية، ويحتجون على ضروب التزييف والتزوير التي ترتكبها الحكومات المحلية في المستعمرات، الممثلة في البرلمان، ويطالبون بأن يكف الاقتراع العام في المستعمرات التي تعمل بهذا النمط من الاقتراع عن أن يكون صورة هزلية مهينة. ويذكرون الحكومات بالوعود التي التزمت بها لكي تحصل من السكان الاهالي على مساعدة في الساعات الحاسمة والعويصة من ساعات الحرب، مستعينة في ذلك بالاهالي الخونة لاخوانهم، ويعربون عن عزمهم الراسخ في الاتحاد والانتظام لكي ينعتقوا من نير الرأسمالية الاستعمارية المضطهدة.

"ويعربون عن ثقتهم، كما يوجهون تشكراتهم لمنظمات الشعب العامل، والفلاح في الوطن الام (فرنسا) على المساعدة التي يعرفون كيف يعتمدون عليها في كفاحهم، ويفترقون على الهتاف: يحيا التضامن الدولي للعمال من جميع الاجناس، وكافة الالوان".

تحولت باريس في ذلك اليوم المشهود من عاصمة المستعمِرين (بالكسر) الى عاصمة المستعمَرين (بالفتح). وقد صح المثل القائل: "الغريب للغريب نسيب" لان التضامن في الغربة زاد القلوب التحاما، والمشاعر الوطنية قوة ورسوخا لدى كل فرد منهم، ولدى الجميع. وحل ذلك كله محل مجرد الحلم بالعودة الى الوطن، أو الحنين الرومانطيقي اليه.

كان الامير خالد، وهو مايزال في مدينة الجزائر، قد أسس منظمة أسماها "الاخوة الجزائرية" انخرط فيها الشبان وغير الشبان من الكهول، والاعيان، والفلاحين، والمثقفين، واكتتب الجميع فيها بمبالغ معلومة من الاشتراكات. ألم تكن هذه "الاخوة" كما نرى بمثابة مقدمة أو ايحاء لفظي استعملها مناضلو جبهة التحرير الوطني فيما بعد؟ ألم تكن لفظة "الاخ" مشحونة بالعواطف في صفوف مقاتلي الثورة الجزائرية بقدر ماكانت لفظة "الرفيق" مشحونة بها لدى الانصار في القرن التاسع عشر؟

بيد أنه لما كان مستيقنا بانه من المتعذر عليه أن ينصب نفسه ممثلا حقيقيا لجميع المنكوبين بالاستعمار، قصر طموحه في مجال كان يتراءى له مناسبا للقيام بعمل مشترك، منسق، وفي منأى من الاطماع الباطلة، والمنازعات التافهة، الا وهو المغرب العربي.

يالها من بصيرة نافذة، ونظرة شاملة. فما من أحد تحدث عن هذا الكيان الموحد، أو سعى الى تكوينه منذ القرن الحادى عشر ومنذ قام عبد المؤمن بن علي ببناء المغرب العربي الكبير من مدينة المهدية في تونس الى الاندلس، والامير خالد هو الذى برهن على نفاذ في البصر وسداد في الفكر، فاقترح على منبوذي الجزائر، والمغرب الاقصى، وتونس، أرضية مشتركة بانشاء "نجم شمال افريقيا" تلك الحركة التي تولى رئاستها، فكان رئيسها الاول.

ومتى علمنا ذلك العدد الكبير من اطارات شمال افريقيا الذين جاءوا يرتوون من هذا المنبع، ويتسلحون فيه بأسلحتهم السياسية الاولى، أدركنا مدى أهمية هذا الحدث، ومغزاه التاريخي.

واذا علمنا مقدار ما أسهموا به جميعا من حماس، وطاقة، وثقة وايمان، ومتى عرفنا مقدار ما استثمروه من صداقة ازدادت قوة ومتانة في بوتقة الحماس المتقد، وحرارة العمل المكتوم، أدركنا مدى مايكتسيه الحدث من بعد انساني، لان ماحصل بعد ذلك على أيدى أبنائهم الطلبة في جامعات فرنسا، انما هي نهضة سياسية، وصحوة قومية واعية، وحوار مشبوب العاطفة، الا يكن ذلك كله للاشتراك في بناء استقلالهم الفتي كما كان الشان بالنسبة الى كثير منهم، فلكي يلقوا بانفسهم جميعا في كفاح مستميت قصد استرجاع الحرية.

وهكذا يبدو عمل الامير خالد وكأنه عمل قام به رائد محنك، أو كلمة ربانية صدرت عن نبوءة، ومن يدرى؟ فلعله لو لم يكن حفيدا للامير عبد القادر، لما سعى أبدا الى القيام بما حالفه التوفيق فيه آخر المطاف.

لماذا اذن لم يشارك في الجهاد الذى نادى به عمه عبد القادر، ضد فرنسا، عندما كان عمه هذا لاجئا في المنطقة الاسبانية، وفي شهر مارس بالذات من سنة ١٩١٥؟

لماذا لم يشارك في العمل الذى قام به الوطنيون المغاربة في

سويسرا ، او في العمل الذى قامت به اللجنة الاسلامية من اجل استقلال الجزائر وتونس، تلك اللجنة التي تأسست في برلين سنة ١٩١٦ ،وحيث كان عمه علي باشا، وابن عمه الامير سعيد حاضرين؟

قد يكون ذلك ، لانه يشعر انه مايزال ناقص النضج في ذلك الوقت للقيام بمثل تلك الاعمال . وقد يكون ،ربما لانه كان لايرى اى مسعى حقيقي وفعال الا المسعى الذى ينجز في الميدان ،وبين الاهل والال ، ومهما يكن من امر ، فهذا مافعله بالذات في مدينة الجزائر وفي باريس،ولم يكن مسعاه باطلا ،ولم يذهب عمله ادراج الرياح ، ويعود الفضل اليه في اعداد اجيال من الرجال القادرين على الانضباط وعلى فرض هذا الانضباط على الاخرين لخوض غمار كفاح مشترك .

ولو لم يكن من مآثره الا هذا الذى ذكر ،لكفاه فخرا وجدارة واستحق عليه الاشادة والتنويه.

ذلك ماكتبت من اجله هذه الصفحات .ولابد ان نؤكد ايضا ان هذا التنويه يتجه الى الشخصية التاريخية الاخرى ،شخصية جدة الذى وافته المنية في سوريا سنة ١٨٨٣.

ولقد مات خالد ايضا في سوريا سنة ١٩٣٦ ،وبكاه الشعب الجزائرى . وقد صرح رئيس جمعية الطلبة الجزائريين قائلا:

"كانت حياة خالد مثالا وتجسيدا لكلمة "واجب" ،ومايزال فكره سائرا لانه يساير منطق التاريخ ويجاريه".

وأى منطق تاريخ آخر يرجوه غير المنطق الذى حقق حلمه:

"لاتستريح نفسي ولاتطمئن الا يوم تتحرر بلادنا".

اذن فلتطمئن نفسك ياخالد.

قال بشار بن برد :

خليلي ان العسر سوف يفيق	وان يسارا في غد لخليق
لقد كنت لا أرضى بأدنى معيشة	ولا يشتكي بخلا علي رفيق
خليلي ان المال ليس بنافع	اذا لم ينل منه أخ وصديق
وما خاب بين الله والناس عامل	له في التقى أو في المحامد سوق
وما ضاق فضل الله عن متعفف	ولكن أخلاق الرجال تضيق

تَرديُدات

قصة: محمد المنصور الشقحاء

الطائف رغم الحب الذي أكنه لها فهي في أعماقي مدينة الأشباح والضياع إذ إن عاشقها لا يستطيع مواصلة الطريق، لكل الطرق تؤدي الى خارج المدينة ومن جهاتها الأربع. وأنا أقف مع مؤهلاتي المتوسطة في عرض الطريق.. انسان ضائع تاه في الزحام ذات يوم فسرقه نشال محترف كل شيء حتى ملابسه، فخرج عارياً يركض في الشوارع المهجورة من كل الحياة. وان كانت تعج بعالم آخر هو عالم الاشباح حيث تجد في كل زاوية شبحاً يتلفع بالطو مهترئاً صناعة أمريكية متلفعاً بغترة حمراء وقد انحنى رأس الشبح فوق صدره لكن نقيق الضفادع التي تتجول بسيارات مختلفة الأشكال والموديلات يعيد لها الحياة فتقفز في مكانها لتكون على أهبة الاستعداد لمواجهة المجهول.

* * *

انغرس حب سحر في جسمي كنصل خنجر مسموم وأخذ يجري فيه مجرى الدم كانت صورة وهمية وجدتها في الصوت الذي كان يصلني عبر الفضاء منغماً بموسيقى إلهية هي كل الوجود فأنهض من فراشي لأبحث عن صورتها في كتبي وصحفي المتناثرة حول فراشي على الأرض..

- لقد كان أخي يكتب الشعر.
- وماذا كان يقول..
- كان يقول أشياء كثيرة.. لكنه الآن صامت.
- ولماذا صمت..؟
- أثر فيه رحيل أمي..
- ولماذا رحلت.. أمك؟
- يقولون هربت مع رجل تحبه..
- من قال هذا..؟
- الجيران..
- وأنت الآن ألست معها..؟
- بلى..
- وهل صدقت الاشاعة..؟
- لا أدري..
- لماذا..؟
- لأنني وجدت زوجها صورة طبق الأصل كما جاء في الحكايات، إنه يختلف عن أبي، ذلك الرجل الذي لم يشعرنا بأنه رب الدار فقد كان خالي وأقرباء كثيرون اختفوا الآن هم كل شيء في الدار حتى أمي كانت هي أيضاً أكبر من الآن سناً.. أما الآن فقد غدت شابة تلفت الأنظار..
- وهو ماذا فعل؟؟
- من..؟
- أبوك
- تزوج..

كان هذا الحوار وهي بعد طفلة في الرابعة عشرة ترتدي ثوباً أبيض تقف على باب غرفتي وقد أخذها منظر الكتب المتناثرة. وصوت والدتها ومجموعة من النساء يصل من وراء الأبواب حيث كانت في زيارتنا مع والدتها التي تربطها صداقة أزلية بوالدتي منذ الطفولة..

- ولماذا لا تدخلين الغرفة..
- أخشى غضب والدتي..
- ولكن لتقرأي ما كتبت من شعر..

ولم تدخل لتقرأ أشعاري، أصرت على الوقوف أمام الباب لترحل من جديد كما قدمت ولكن كان الحب قد اتخذ مجراه في جسمي فأخذت أكتب لها بدلاً من تلك الكتابات التي كنت أقتبسها

من الكتب وما يقع بين يدي من صحف.

* * *

التجول في الشوارع كان هوايتي تركتها بعد أن شعرت بأنني جسم غريب في دارنا لقد تغير كل شيء في حياتي بعد أن حطم أخي طموحي وفرض عليّ مدرسة تدفع معونة شهرية لطلبتها تدرس اللغة العربية والدين فقط حتى تساعده المكافأة في الصرف عليّ بعد وفاة والدي الذي تخلى عنا جميعاً ذات مساء فاكتشفنا أننا لا نملك شيئاً. استطعت مجاراة زملائي في الدراسة حتى السنة الخامسة فتوقف في داخلي مرجل التلقي.. ففشلت في اجتياز امتحان السنة الخامسة مرتين تم على ضوء ذلك الغاء المكافأة وهرب أخي الى مدينة أخرى متخلياً عني فأنا انسان فاشل لا يريد الحياة..

كان التسكع سلواه الوحيدة كل مساء أعود متأخراً الى الدار فأجد والدتي قد غفت..

* * *

ـ هل تتأخر كل ليلة هكذا..

كانت تجلس خلف مكتبي لا أدري كيف دخلت غرفتي.. صدمني صوتها أول وهلة انني أعرفه... انها جارتنا التي رحلت منذ ثلاثة أعوام مع زوجها من المدينة. ولحقت بها أسرتها ولكن ماذا جاء بها..

ـ لقد غدوت انساناً آخر..

كانت أوراقي مبعثرة وبعض الصحف الفنية والكتب الصغيرة ملقاة بإهمال حول الفراش.. لقد أخذت تقلب كل شيء حتى ألبوم الصور.

ـ لم أجد لي صورة..

ومن أين أجد لها صورة وهي بعيدة عني وأنا طفل أفضل معاكسة الصغيرات والهرب بدون حكاية فأنا لا أريد لي حكاية كبقية الحكايات يستطيع كل انسان إضافة شيء من عنده اليها..

ـ انك جميل في هذه الصورة..

هل حقاً أنا جميل ولماذا لم أكن جميلاً سوى هذه الليلة.. لقد كنت جارها الموبوء الذي تهرب من نظراته عندما يلمحها في الباب الموارب أو من خلال النافذة تغازل المارة كمجنونة حرص أهلها على حبسها داخل غرفة أشبه بقفص القرود..

ـ كيف دخلت غرفتي..؟

ـ الباب الخارجي مفتوحاً.. وقد عرفت كل شيء من والدتك هذا المساء فعدت بعد أن شعرت أنها نامت.

ـ وزوجك..

ـ سافر..

ـ وأنا..

ولم تدعني أكمل حديثي... كانت امرأة مهجورة لم تمارس الحب منذ ألف عام..

وخرجت على أطراف أصابعها.. بعد أن تركتني كومة من الأشياء القديمة. كان آخر عهدي بها عندما سمعت الباب يغلق.

* * *

هجرت تسكعي.. في الشوارع والبحث عن عيون متلصصة في النوافذ أو الأبواب المواربة كما هجرت مقاعد الدراسة وأخذت أبحث في الصحف والمجلات عن اعلانات الوظائف لعلّي أجد وظيفة تناسب مؤهلاتي المتوسطة ولا شيء آخر. أما أشعاري فاكتفيت بما كتبت وأخذت كل مساء أقوم بنسخها في دفتر جديد، احترت في اختيار اسم مناسب لها.. وكذلك لم أستطع تحديد صيغة الاهداء وان قمت بكتابة مقدمة هي صورة طبق الأصل لحياتي التي لا أدري كيف كانت..

* * *

أحيل والد سحر الى التقاعد فعاد الى الطائف ولكن لم تكن معه حيث إنها تدرس في الجامعة وقد تركها مع والدتها ليصافحني كل مساء يطلب مني مساعدته في الحصول على تلفون.. لقد كانت معه أرقام كثيرة يقوم بنشرها كل مساء في غرفتي ويأخذ التلفون في حضنه ثم يدير القرص أكثر من مرة يتحدث كثيراً مع أناس لا أسمع سوى صوتهم فأتجاوزه محاولاً التركيز في متابعة ما يقدمه التلفزيون أو مواصلة القراءة في كتاب..

ـ لقد قالت والدتك انك تبحث عن عمل..

ـ أجل..

كانت لحظة.. توقف فيها ليبحث عن رقم جديد وخرج بعد أن أعياه العثور عليه. وفجأة رن التلفون، كان أحدهم يطلبه فلحقت به ولكن لم أعثر عليه في الشارع لقد اختفى فعدت وطلبت من المتكلم معاودة الاتصال بعد نصف ساعة وخرجت أبحث عنه واتجهت الى الدار التي استأجرها في الشارع الثاني..

ولم أعثر عليه.. ولكن ما أن تفوهت باسم المتكلم حتى صرخت زوجته..

ـ انه أخي..

وطلبت من أطفالها البقاء في الدار لاشعار والدهم بذلك

ولحقت بيّ . دخلت غرفتي حيث يقبع التلفون منتظرة أن يتكلم الجهاز، أما أنا فقد دخلت الى المطبخ أبحث عن والدتي فلم أعثر عليها واتجهت الى غرفتها فوجدتها نائمة فأخذتني الحيرة وسمعتها تتحدث وعدت اليها كان وجهها الناصع البياض والذي أشاهده لأول مرة ينبيء عن جمال باهر . فتسمرت في مكاني . . ولم ألاحظ أن المكالمة قد انتهت وانها أخذت تتأملني . .

ثم نهضت من مكانها . . لم أتحرك من مكاني في فم الباب وشعرت بالارتباك . .

ـ شكراً . . لقد وصل أخي بالسلامة .

وشعرت بأنفاسها قريبة مني وزوجها الذي اختفى خلف غلالتها السوداء الرقيقة يترقب .

وخرجت لتلتقي بزوجها أمام الباب الخارجي وسمعتها تقول له كان أخي . . لقد وصل بالسلامة . .

وأخذ يصرخ منادياً . . وخرجت ووجدتها تقف الى جواره . وقد زرعت ابتسامة انتصار صغيرة على شفتها . .

ـ لقد وجدت لك وظيفة . .

ـ أين . . ؟

ـ هذا مظروف به كل المعلومات وعليه اسم الجهة التي سوف تغدو أحد موظفيها . .

* * *

كان العمل لذيذاً شعرت بأن لي كياناً جديداً وان كان المكتب الذي أجلس خلفه متداعياً بعض الشيء ومع ذلك لم أحاول تغييره أو مطالبة ادارتي كما أوعز لي زملائي بمكتب جديد . . وقطعت صلتي بكل من أعرف انني الآن انسان جديد رغم أنني لم أغادر مدينتي . . ذات الأشباح . ولكن أفرح عندما أطل من الاتجاه الغربي عبر الجبال بعد غروب الشمس عليها وقد شعت أنوارها فآخذ في تأملها وقد انزرعت في مقلتي دمعة حزن لم تفارقني منذ كنت طفلاً أذهب الى المدرسة حافي القدمين بثوب قصير وغترة مهترئة هي بقايا أحد الجيران . . كانت الخواطر تتوارد في داخلي كشريط سينمائي أنا أحد أبطاله ولكن في حكاية لم يشاهدها أحد حتى الآن لانسان فرغ جوفه من كل شيء لم يعد يختزن شيئاً مما حوله وان كان هناك خوف من مجهول يجعل من الأحداث صوراً باهتة هي صدى لحادث وقع أيام الطفولة لا يدري ما هو .

١٤٠١/١٠/٥ هـ

قال مسلم بن الوليد :

ان يقعدوا فوقي بغير نزاهة	وعلو مرتبة وعز مكان
فالنار يعلوها الدخان وربما	يعلو الغبار عمائم الفرسان

اليوم المقدس

زكي قنصل

عاد الغريب الى ربوع الضاد … هل تشتفي بالعود غلة صاد ؟
هذا هو اليوم المقدس عنده … والاكرم الاغلى من الاعياد
هذا هو الحلم الذي أغفى على … اهدابه وصحا على ميعاد
وارحمتا للغائبين تشردوا … في الارض بين حواضر و بواد
ضاعت وراء الترهات اصولهم … وكبا وراء الرزق كل جواد
نزحوا قوافل في ركاب قوافل … هل عاد للمغنى سوى آحاد؟
عشنا على الاوهام يخدع بعضنا … بعضا ، ونضرب يقظة برقاد
لليل شكوانا ، وهل ابقت لنا … غصص النوى الا حطام فؤاد ؟
ارض الغريب حنت على آمالنا … لكنها جارت على الاكباد
طرنا اليها جذوة وهاجة … من صبوة وحمية وعناد
ثم انكفأنا حفنة مرذولة … لا خير فيها من لقى ورماد
أحفادنا يبنون فيها جنة … انهارها من ادمع الاجداد
يا ليت لم نرحل ولم يبنوا ولم … يضع الجدود بجنة الاحفاد
يامهد احلامي ودار طفولتي … (سبحان من القى اليك قيادي) (١)

هل تذكرين على رباك كتيبة   تعدو على خيل من الاعواد
يقتادها في النائبات مجرب   جم الغرور بسيفه المياد
متهلل القسمات الا انه   متواصل الابراق والارعاد
انا ذلك الولد الغرير تجهمت   آفاقه ، وعدت عليه . عواد
عصف الخريف به ولن لم تزل   في مقلتيه براءة الاولاد
الطود مسبح فكره لا رجله   والسهل مسرح شوقه الوقاد
يحنوا عليك بروحه ويود لو   رقدت بقاياه بأطيب واد
اعرفتني ام غيرتني غربة   جارت بأنياب علي حداد ؟
يا معقل الاحرار لبيناك من   خلف الشواطىء دون كل مناد
جئناك يحدونا الحنين ، وانه   لأحب حاد في النفوس وشاد
هذا التراب العبقري يضم في   احشائه دنيا من الامجاد
في كل شبر منه يرقد صارم   للحق يصحب كوكبا للضاد
حمل الحضارة للشعوب ولم يزل   يحدو الشعوب الى الطريق الهادي
قرآن أحمد شع من آفاقه   وسرت تعاليم المسيح الفادي
يا عاثبية اتهدمون جداره   بقذائف الاضغان و الاحقاد
لا تتعبوا فالله جل جلاله   حاميه من غاز ومن جلاد
غورو انطوى وتظل تربة يوسف   ملقى القلوب وكعبة القصاد
هيهات تنطفىء النجوم بنفخة   او تهدم الاطواد نبلة عاد

يا غصة تكوي حنايا اضلعي   بلى اوارك بالغدير الغادي
عدنا الى دار الطفولة فاذهبي   عني ، فقلبي للبشاشة صاد

يا اصدقاء الخير فاض سخاؤكم   بحياتكم لا تثقلوا اصفادي
ان كنت لا اسطيع رد جميلكم   فلسوف اشكركم بدمع فؤادي

النقد الأدبى بين اللغو الشكلى والعلم الوضعى

إشكالية المصطلح فى النقد الأدبى الغربى المعاصر

د. سمير حجازى

— ١ —

فى بداية ستينيات هذا القرن ظهر اتجاه جديد فى النقد الأدبى يتمثل فى محاولة ضم النقد الأدبى إلى ميدان العلوم الإنسانية . وقد اعتمد هذا الاتجاه بصفة جوهرية على المفاهيم والحقائق السيكولوجية والسوسيولوجية والأنثربولوجية واللغوية . وقد تجلت هذه الظاهرة بوضوح إثر انتصار النزعة الوضعية فى النقد لاسيما بعد شيوع المنهج البنائى فى ميدان العلوم الإنسانية من جهة وفى ميدان النقد الأدبى من جهة أخرى . وصاحب هذا الاتجاه ظهور مفاهيم ومصطلحات نقدية جديدة (مثل مفهوم البنية الدالة ، والبنية العامة ، البطل المشكل ، رؤية العالم ، الوعى الفعلى ، البناء الرمزى .. الخ .)

هذه المفاهيم أو تلك المصطلحات انطلقت أساساً من موقف نظرى ارتبط بعلم اللسانيات والأنثربولوجيا ، من جهة وبالفلسفة البنائية من جهة أخرى . ثم انتقلت إلى النقد الأدبى العربى فى سبعينيات هذا القرن ، نقلا عن التراث النقدى الأوربى الغربى ، وشاعت فى الكتابات والدراسات النقدية العربية فى شىء من التسرع وبدون قدر كاف من التمحيص ، الذى ترتب عليه شيوع نمط من الغموض فى تلك الكتابات أو فى تلك الدراسات ، خاصة بعد زيادة حركة الترجمة من التراث النقدى الأوروبى فى عشر السنوات الأخيرة فى مصر والعالم العربى .

— ٢ —

سنحاول هنا أن نحدد الملامح العامة لهذه المشكلة ، أعنى مشكلة الغموض فى لغة الناقد أو فى مصطلحاته ، وما تثيره هذه المشكلة من قضايا .

وبديهى أننا لن نضع الحلول الواضحة المفصلة لهذه المشكلة ، فإنها جديرة ببحوث أضخم بكثير من بحثنا هذا ، لما فيها من جوانب لغوية وعلمية وفلسفية ونقدية . غير أننا سنحاول أن نضع الفروض التى يمكن على أساسها البحث عن هذه الحلول . ومن المحقق أننا إذا استطعنا أن نحدد دلالة بعض تلك المصطلحات فى مجالها ولو بطريقة تقريبية فإنه من الممكن أن تكتمل

لدينا صورة محددة لها، من حيث إنها مصطلحات لها دلالة نظرية وعملية فى مضمار النقد الأدبى . ومما يسهل علينا الأمر ، أن نلم الماما عابرا بمجالات العلوم الإنسانية . ولكن هذا القول سيجعل البعض يقرر ـ بمجرد قراءته لموضوع البحث ـ أن هذا البحث سيتجه إلى أحد مجالات هذه العلوم ، ولكن الموضوع وحده لم يعد يكفى لتحديد طبيعة البحث ، لأن هناك موضوعا يمكن أن يدخل فى مجالات عديدة فى وقت واحد. مثال ذلك موضوع الإبداع الفنى الذى يمكن أن يوضع فى مجال البحوث الاستطيقية (علم الجمال) وفى مجال الدراسة الفلسفية وفى مجال الدراسات النفسية ، فالموضوع وحده إذن لايكفى لتحديد طبيعة البحث ، وإنما لغته الخاصة هى الكفيلة بأداء هذه المهمة . فالناقد اللغوى والناقد النفسى والناقد الاجتماعى ، كل هؤلاء مجال اهتمامهم هو الأثر الأدبى . ولذلك قلنا أن الموضوع وحده لايكفى لتحديد الميدان وإنما لغته . ونحن نقصد بهذه الكلمة الإطار العلمى والمناهج التى يستعملها الناقد أو الباحث ؛ فالبحث العلمى كما نعلم هو منهج أولا وقبل كل شىء ، والموضوع لا يصبح ذا خصائص علمية إلا إذا طبق عليه المنهج العلمى ، فالإطار العلمى يعطى الموضوع أهمية خاصة ، لأن ذلك الإطار هو الذى يدفع به من مجاله العام إلى مجال آخر خاص يكسبه صفات محددة تجعله ينضم إلى مجال محدد . فالموضوع وحده يشبه رجلا مجهول الشخصية غير محدد المعالم . وما دام الأمر كذلك فلنتقدم لتحديد هذا الإطار أو تلك اللغة التى تحدد هذا الموضوع ، ولنفهم منذ البداية أن كافة الموضوعات لا يمكن إخضاعها لإطار علمى واحد وأن لكل موضوع إطاره الخاص .

والذى يهمنا فى هذا المقام ليس طبيعة الموضوع الذى يريد الناقد أو الدارس إخضاعه للبحث وإنما كيف نحدد طبيعة الموضوع وطبيعة منهجه ، انطلاقا من لغة الباحث أو الناقد ، أو من جملة المفاهيم الشائعة فى النظرية التى يعتمد عليها فى بناء هذه المفاهيم .

والمفاهيم النقدية المعاصرة عديدة ومتنوعة ، وإن كانت كلها تتضمن عدة سمات مشتركة يمكن أن نلخصها فى ضرورة النظر إلى الظاهرة الأدبية على أنها نظام أو نسق داخلى متماسك ؛ وذلك من أجل إدراكها أو التوصل إلى معرفتها ، ومحاولة رد نمط من الظواهر الأدبية إلى نمط آخر باعتبار أن دلالة الظاهرة الأدبية لا تتجلى فى معناها المباشر . وهذا الفهم يعبر بلا شك عن نظرة علمية ، وسعى دائب للوصول إلى عمق الظاهرة الأدبية ، أو ـ بعبارة أخرى ـ يعبر عن جهد يبذل للوصول إلى اكتشاف بنية الظاهرة الأدبية أو غيرها من الظواهر الإنسانية ، واعتبارها نظاما يضم مجموعة من العناصر المتحدة بواسطة رابطة تضامن وثيق . ذلك المفهوم الذى يتبناه النقد المعاصر يهدف أولاً وقبل كل شىء إلى بيان الظاهرة الأدبية على أنها نظام مترابط الأجزاء ، وهذا يعنى أنهم يريدون وضع أسس عقلية لتحليل الظاهرة الأدبية ، ومن مظاهر هذه الأسس محاولة استعمال مصطلحات علمية تعتمد على مفاهيم معينة لتحدد المراد إخضاعه للدراسة أو التحليل . ولهذا فإننا نلاحظ فى مجال النقد السوسيولوجى شيوع مثل هذه المصطلحات :

رؤية العالم ViSion du monde ، والمعنى الموضوعى Signification objective ، والبطل المشكل Hero prob-lematique ، والدلالة الاجتماعية Signification Sociale ، والبعد الايديولوجى Dimension ideologi-que ، والبناء الاجتماعى Structure Sociale ، . . . . الخ

بينما نلاحظ فى مجال النقد النفسى شيوع مثل هذه المصطلحات :

البنية اللاشعورية Structure inconsciente ، اللاشعور Inconscience ، رمزية الأحلام Symbole de reve ، كلام Discours ، أما فى النقد الرمزى فنجد مثل هذه المصطلحات : نظام ordre أو كلمة « نسق » systeme أو كلمة « بنية » structure ، أو كلمة علامة signe الخ .

هذه المصطلحات ، رغم اختلافها ، يبدو أنها متفقة

كلها ــ سواء فى النقد السوسيولوجى أو النفسى أو الرمزى ــ على استعمال لغة علمية موحدة . ومما ساعد على ذلك وجود لفظة «البنية» التى تعد عاملا مشتركا بين مفاهيم هذه الاتجاهات النقدية . ونحن إذا دققنا النظر فى هذه المصطلحات وجدناها تكشف عن مظاهر هذه الوحدة بطرق مختلفة ، فهى تبدو متفقة على حقيقة واحدة ، فهناك على الدوام كلمة بنية ، وإن كان هناك اختلاف فى دلالتها لدى كل اتجاه ، لكن وظيفتها الرمزية واحدة ، غير أننا لا نريد الوقوف عند بعض المصطلحات ، وإلا انتهينا إلى القيام بعملية تصنيف لها ، كالقول مثلا بأن مصطلح «البنية ذات الدلالة» عند الاتجاه السوسيولوجى يعنى البحث فى المعنى الموضوعى ، وأن البنية اللاشعورية تعنى التعبير عن آليات اللاشعور عن طريق اللغة ، وأن «البنية الرمزية» تعنى الدلالة الحقيقية للأثر . وحين نبحث عن مدى التشابه بين تلك المصطلحات ننتهى إلى التصنيف . ولكن هذا التشابه ليس تشابها مطلقا ، لأنه يتضمن فى بعض أجزائه نمطا من التضارب الذى يوجد بين المصطلحات ؛ فهناك مثلا «الدلالة الاجتماعية» أو «الوعى الفعلى» المضمر فى بناء الأثر الذى ينجزه الناقد أو الباحث السوسيولوجى فى مضمون أو بناء الأثر ، فى حين أن مصطلح «نموذج شكلى» هو مصطلح «بنائى رمزى» للتعبير عن عدم وجود دلالة عامة فى العناصر الرمزية (داخل بنية الأثر) . وما يعنينا فى هذا المقام ، الإشارة إلى ذلك التضارب بين هذه المصطلحات لا الوقوف عندها ، لأننا نقف أولاً وأخيرا عند الكل الفعال لهذه المصطلحات . وهذا الأمر يبدو واضحاً فى اهتمامنا بعدة اتجاهات نقدية فى وقت واحد .

على الرغم من وجود ذلك التضارب أو الاختلاف بين المصطلحات إلا أنها تبدو متفقة فى جوهرها على الأساس الموضوعى ، فالنقد السوسيولوجى يستعمل مصطلح «بنية الأثر» ، وكذلك يستعمله النقد النفسى والنقد الرمزى . وبنية الأثر عند الناقد أو الباحث ترتبط دائما بمعنى معين ، ويستعملها لضرورة ، ولفلسفة معينة مصدرها النزعة البنيوية . فالباحث أو الناقد حينما يستعين بمصطلح معين يعرف معناه مسبقا ؛ ويعمل فى بنائه الذهنى نموذجا لاستعماله ، وهذه النماذج تختلف من ناقد لآخر ، وتتغير بتغير مجال النقد وبتطور ثقافة العصر .

والناقد (أو الباحث) قد يضطر فى أحوال معينة إلى استعمال مصطلحات نقدية معينة ، على أساس أن تلك المصطلحات تمثل علاقة مثالية بين بنائه الذهنى وبين موضوع بحثه . ونحن نفترض أن تلك العلاقة المثالية تنشأ نتيجة تفاعل بين هذه الجوانب الثلاثة (مصطلح ــ ناقد ــ موضوع) بصفة عامة ، ونتيجة اكتشاف الناقد قدرة هذا المصطلح على التعبير المحكم بصفة خاصة .

تلك العلاقة المثالية بين هذه الجوانب الثلاثة لا تتحقق إلا إذا استوعب الناقد كافة جوانب النظرية التى أنجبت هذا المصطلح ، وحدد طبيعة موضوعه ، وعلى هذا الأساس يمكنه أن يتحرك فى حدوده ، فيشكل اللغة ويحول اتجاهها ويصبح لها وظيفة جديدة فى بحثه .

وتتميز هذه المصطلحات البنيوية بالتزامها الدقيق بمبادىء المنطق ، والعمل على ما بينها من علاقات متبادلة بين ذهن الناقد (أو الباحث) من جهة وموضوعه من جهة أخرى . وهذا يعنى أن هذه المصطلحات تتجه كلها نحو إبراز ما للغة من صدارة فى الأثر . ثم تتجه أيضا إلى الاهتداء إلى وحدات تركيبية مستندة إلى المنهج البنيوى من جهة ، ونظرية ابستمولوجية من جهة أخرى . بهدف إضفاء طابع عملى محض على الدراسة الأدبية ، إنطلاقا من السعى وراء إيجاد نظرية نقدية علمية . ولعل هذا هو السبب فى أن هذه المصطلحات قد دعمت بعدد معين من المسلمات ، نذكر من بينها مسلمة الأثر (يماثل نموذجا) ومسلمة الأثر (مؤسسة خطابية أى أن هناك مجموعة عناصر متكاملة مضمرة داخله . هذه المسلمات وتلك المصطلحات كلها تسعى نحو فهم الأثر أو تفسيره فى ظل المنهج التجريبى . وإذا تساءلنا من أين جاءت نظرية النقد بهذه المصطلحات ؟

كان لزاما علينا أن نتبين مصدرها الحقيقى . وعلاقة هذا المصدر بروح العصر ، فأما عن المصدر الحقيقى فهو النزعة البنيوية التى ظهرت فى الثلاثينيات ونضجت فى الستينيات كحركة علمية تحاول التوصل إلى الكشف عن عالم الأثر وإدراك ما فيه من قوانين تحكم عناصر ومعانيه المتعددة ، أما عن علاقة هذا المصدر بروح العصر فيفسرها الرأى الشائع عن الحركة البنيوية فى السنوات الأخيرة ، باعتبارها حركة معبرة عن نزوع الفكر النقدى نحو ميدان الابستمولوجيا ، فالحركة البنيوية قد خلصت النظرية النقدية من الاتجاهات الميتافيزيقية ، ومن مغالاة النظرة الجمالية ، بحيث ضعف صوتها فى السنوات الأخيرة . وهكذا تدفع البنيوية النقدية الأثر نحو مفهوم يخضع أساسا لقواعد الفكر المنطقية . والظاهر أن ظروف البنيوية فى أوربا هى التى كانت عاملا أساسيا فى ذلك ، فزيادة وعى الإنسان بقدرته على فهم طبيعة عصره وطبيعة ثقافته كانت عاملا أساسيا فى انتشار هذه المفاهيم النقدية .

ولننظر الآن فى طبيعة هذه المفاهيم النقدية وما يمكن أن تطرحه من إشكاليات نظرية وعملية ، أو بعبارة أخرى إلى أى حد تتفق هذه المفاهيم النظرية النقدية مع العلم ومعاييره . . ؟ إننا نعتقد أن هناك أسبابا متعددة تحول دون تحقيق «نظرية نقدية علمية» منها أن النظرية النقدية لا تختلف عن سائر النظريات التحليلية من حيث قضاياها من جهة ، وأنظارها المفروضة من جهة أخرى وطبيعة مفاهيمها من جهة ثالثة .

فالمسلمة الأدبية القائلة بأن الأثر الأدبى كل متكامل يتضمن مجموعة متكاملة ، هذه المسلمة تبدو غير واضحة من جهة ، هذا إلى جانب أن هناك شكوكا فى صحتها من جهة أخرى ، نظرا لأننا لا نرى إلى أى حد تتأثر أجزاء الأثر بهذا الكل المتكامل وإلى أى حد تتفاعل فيما بينهما .

هذه مسائل وقضايا مطروحة يجب أن يعالجها الناقد (أو الباحث) المدقق فى استعمال مصطلحات أو مفاهيم النظرية النقدية . فمثل هذه المسلمات لا سند لها من العلم كما أنها (غير ذات موضوع) وتبدو من قبيل اللغو .

ولكن الأمر يختلف إذا قلنا بأن الناقد (أو الباحث) يبدأ بدراسة الكل فى الأثر ، وينظر فى أجزائه على أنها «أعضاء» فى هذا الكل ، فإن هذا القول يتفق إلى حد بعيد مع اتجاهات النقد الجديد كما تؤيده النظرة العلمية النقدية .

والإشكال الثانى أن هذه المعطيات أو تلك المفاهيم تصبغ النظرية النقدية بصبغة علمية ، وتجعلها تسوق نتائجها بصورة قاطعة ، واعتبارها نتائج يقينية ، بينما طبيعة النظرية النقدية ذاتها لا تسمح لنا بإنجاز النظرة الكلية المجردة التى ينجزها العلم الوضعى .

والإشكال الثالث إزاء المفاهيم والمصطلحات النقدية يتمثل فى الدلالات اللغوية لهذه المصطلحات ، فهناك فارق كبير بين قولنا (إن اللغة جوهر الأثر) وبين قولنا : « إن للأثر لغة ذات بنية خاصة » ولعل السبب فى هذا التمايز اللغوى هو إطلاق عبارة « لغة الأثر » واستبدالها بعبارة « اللغة جوهر الأثر » .

فالجوهر لا يعنى « البنية » ، الأمر الذى معه تتدخل اللغة إلى حد كبير فى تحديد صياغة المصطلحات النقدية . ومن هنا تختلف المفاهيم وتتصارع وجهات النظر حول التعريفات . فالمشكلة اللغوية هى مشكلة تضعف من تحقيق الموضوعية فى النقد الأدبى . فالنظرية النقدية تبدو فى مسيس الحاجة إلى إجلاء لغتها وتحديد مفاهيمها ، فهى ما زالت — رغم الجهود المبذولة الآن — تفتقر إلى لغة علمية ، حتى يستقيم النقد الأدبى علماً كسائر العلوم الإنسانية . وفى هذا الصدد يمكن القول بأن المصطلحات الجديدة يكتنفها الغموض والاضطراب ، فليس هناك اتفاق بين نقاد الأدب حول تلك المصطلحات ، فقد اختلفوا مثلا فى مفهوم « المعنى الموضوعى للأثر » وردوه إلى « مجموعة العلاقات المنطقية » أو « مجموعة الدلالات المضمرة فى بنية الأثر » وكثيراً ما نشبت الخلافات النقدية حول مفهوم « البنيات ذات الدلالة » ، أو مفهوم « البطل المشكل » ، أو حول الفروق بين « النظام »

و « النسق » أو التمييز بين « العلامة » و « الرمز » .

هذا مظهر من مظاهر تعثر النقد الأدبي في سيره نحو استخدام مصطلحات صارمة ودقيقة ، لهذا فإننا نرى أنه من الضروري أن يتجه النقد نحو معالجة مصطلحاته بأسلوب منهجي منظم ، لتحديد لغته وجعلها لغة علمية . فنحن نخالف الرأى الشائع الذى يزعم أن معاني المصطلحات النقدية لا يشوبها الغموض وليست في حاجة إلى تحديد ، إننا نخالف هذا الرأى ونذكر أصحابه بأن لغة النقد الأدبي ما زالت لغة كيفية ، كثيرا ما تتأثر بالنزعات الذاتية ، في حين أن لغة العلم لغة كمية ، فالمشكلة الأساسية التى يواجهها النقد الأدبي المعاصر هى ، أولا وقبل كل شىء ، مشكلة تتعلق باللغة والمصطلحات من جهة ، وتتعلق بقضايا خارج النقد من جهة أخرى .

من الضرورى إذن أن يحرر النقد مصطلحاته أولا من الغموض ، كى تكون أهلا للدخول فى نطاق العلوم الإنسانية ، وإن كان هذا الأمر عسير المنال ، نظرا لأن ذلك لايتأتى إلا بعد تخليص لغة النقد الأدبي ، بوجه عام ، من طبيعتها الكيفية ، وبعد تحريرها من الروح المذهبية التى تظهر فى مختلف اتجاهات النقد ، ولكن كيف نحدد لغة النقد الأدبي ؟ وما هى خصائص المصطلحات النقدية ؟ نحن نرى أنه من الضرورى أن يتوافر فى المصطلحات النقدية عدد من الشروط أهمها أن تكون هى المصطلحات الموصلة مباشرة إلى المعنى الواضح الدقيق ، وأن تؤدى بنا إلى فكرة واحدة محددة .

أما الإشكال الثالث فيتعلق بمسألة النظرية النقدية والقانون الأدبي . فنحن نعرف أن العلم الوضعى يتضمن عددا من القضايا المحققة ، ومجموعة من الحقائق العامة التى تستند إلى التجريب والمشاهدة ، لمحاولة إنجاز القانون الذى يرتكز أساسا على المشاهدة العلمية . والقانون الذى نقصده هنا هو القانون العلمى الذى يمكن التوصل إليه باكتشاف الأنماط أو ـ الإطرادات ـ فى سائر الظواهر .

أما عن القانون الأدبي فمن الصعب تحقيقه ، ذلك لأن هناك إشكالا منهجيا ولغويا يرتبط بمسألة تعميم الظواهر الأدبية ، فنحن لا نستطيع أن نحدد بدقة درجة الانفعال فى رواية أو قصة ، أو درجة التطور الفنى فى بناء قصيدة أو مسرحية . وهذا يرجع إلى أن طبيعة الظاهرة الأدبية تختلف عن طبيعة الظواهر التى يطرحها العلم الوضعى للبحث . وذلك يعنى أنه ليس بإمكان النقد الأدبي أن يصوغ القوانين الأدبية . وقد يقول قائل : أنه من الممكن إيجاد قوانين أدبية . فجولدمان مثلاً اكتشف أن هناك ارتباطاً فى تغير الشكل الروائى وتغير بنيات الوسط الاجتماعى الاقتصادى فى المجتمع الصناعى المعاصر . ومثال ثان يقول : « أن هناك ارتباطا بين شيوع القصة القصيرة فى أدبنا المعاصر وأزمة الفئة المثقفة » . أما المثال الثالث ، فيقول : « إن زيادة درجة التوتر تؤدى إلى تعطيل عملية الإبداع » ولكن يمكننا الرد على هذا الأمثلة وما شابهها من أمثلة أخرى بأن القانون لا يمكن أن يكون كذلك إلا إذا صدق على جميع الحالات أو الظواهر ، فهذا القانون تنقصه العمومية والتجريد ؛ فالقانون الأول الذى يربط بين تغير البيئة الاجتماعية ببنيات البيئة الاقتصادية فى المجتمع الرأسمالى المعاصر وبنيات الشكل الروائى ، هذا القانون لا يرتبط بكافة المجتمعات ولا بكافة الآثار الروائية . ●

أقاصيص شرقية

مرغريت يورسينار

ترجمة: سعد صائب

مرغريت يورسينار اول امرأة تجتاز عتبة " المجمع العلمي الفرنسي" كان دخولها الى " المجمع "حدثا في حد ذاته ، فهي اول امرأة تكسر طوق التقاليد التي تمنع تتويج امرأة مهما بلغت قيمة مؤلفاتها الادبية رفعة ..

عاشت مرغريت حياتها في " كندا " الفرنسية قبل ان تمنح الجنسية الفرنسية وتستقر في باريس .

آثارها :

١ – الطعنة القاضية .
٢ – عرض نقدي لكونستانتان كافاري
٣ – نهر عميق ، جدول مظلم .
٤ – الاثر في السواد .
٥ – عرض نقدي لهورتانس فليكستر
٦ – مسرح (في جزئين)
٧ – الكسيس .
٨ – مذكرات هادريان .
٩ – ذكريات ورعة .
١٠ – نيران .
١١ – أقاصيص شرقية .

كيف نجا وانغ – فو

راح الرسام الشيخ وانغ – فو ، وتابعه لنغ يسلكان دروب مملكة هان ، هائمين على وجهيها ، منسربين في تثاقل وهما ينوءان بأشياء يسيرة .. لا يأتلي وانغ – فو يتلبث في الليل ، متأملا الكواكب ، ويتمكث في النهار ، مصوبا بصره الى اليعاسيب(١) ...

كان وانغ – فو يهوى صورة الاشياء ، لا الاشياء ذاتها ، وما من شيء محسوس في العالم لا يبدو له جديرا بأن يهسي خبرة ومعرفة ، عدا ريش الرسم واوعية الدهان ، والمداد الصيني ، ولفائف الحرير وورقة الارز ..

كان وانغ – فو وتابعه لنغ فقيرين ، لأن وانغ – فو يعزف عن النقود الفضية ، ولا يقايض لوحاته الا بجراية من عصيدة دخن (٢) ..

أما تابعه لنغ فلا يألو ينوء تحت وقر كيس مليء بمخططات لوحات ، فتراه محني الظهر باحترام ، كمن يحمل الكرة الارضية على عاتقه ، لأن هذا الكيس ، في نظر لنغ مفعم بجبال يغمرها ثلج ، مترع بأنهار تنساب في الربيع ، مغمور بوجه قمر يطل في الصيف ..

لم يولد لنغ لينطلق في الدروب الى جانب شيخ هرم يستحوذ عليه الفجر ، ويأسره الشفق .. فوالده كان صرافا ، وامه ابنة وحيدة لتاجر يشب (٣) ، ورثت عنه ثرواته على كره منه ، اذ لم تكن صبيا ... ولقد كبر لنغ في بيت استبعد ثراؤه المصادفات ، فجعله هذا الوجود الذي سد بعناية ، خجولا ، فكان يستشعر الخوف من الهوام ، ويهاب الرعد ، ويشفق من وجوه الموتى ،

وحين بلغ الخامسة عشرة من عمره ، اصطفى له ابوه زوجة ، انتقاها رفاقه الحسن ، فعزته فكرة السعادة التي تزود بها لابنه ببلوغه السن التي تفيده في خلوده الى النوم ..

كانت زوجة لنغ هيفاء واهية كالقصبة ، يسيرة كاللبن ، عذبة كالرضاب ، مملحة كالدموع .. وبعد ان تم عقد الزواج ، لم يعدل ابوا لنغ عن رصانتهما حتى فارقا الحياة .. اما ابنهما لنغ فمكث في البيت وحيدا لا يبارحه ، وراح يعكف على الرسم بالأحمر القرمزي، مصاحبا زوجه الصبية ، التي ظل وجهها يتهلل بشرا ، منساقا مع شجرة خوخ لا تأتلي تهب له كل ربيع ازهارا وردية ..

لقد أحب لنغ هذه الزوج بقلب صاف رائق ، كحبه مرآة لم يشبها كدر ، وغرامه بطلسم لا يني جم الفائدة ..وكان يختلف الى اندية الشاي ، مذعنا للعادة الجارية ، مشجعا في اعتدال البهلوانيين والراقصات ..

وذات ليلة صخب فيها وانغ - فو حول مائدة ، فمضى الشيخ يحتسي الخمرة ، كيما يمسي في حال فضلى ، يتيح له رسم سكير، فكان رأسه يميل جانبا ، كمن يبذل جهدا كيما يقيس المدى الذي يبعد فيه يده عن قدحه ..وكانت خمرة الارز تطلق لسان هذا الفنان الحاذق ، الذي لاذ بصمته ، وكف عن الحديث في ذاك المساء ، كما لو أن الصمت أضحى جدارا ، و أن كلمسات الالوان المعدة أمست حجابا ، فأدرك لنغ بفضلها جمال وجوه الشاربين ، التي يواريها دخان الخمرة الدافئة ، وتحجبها ألسنة اللهب ، وسنى اللحم الاشقر المتقن الصنع ، على نحو متفاوت، فترصع بقع الخمرة اللذيذة الخوان كأنها بتلات ذاوية ..

ما ان نفذت من النافذة هبة ريح ، حتى ولجت الحجرة زخة مطر ، فانحنى وانغ - فو كيما يدع لنغ يعجب بخط الضياء الكابي، المنبعث من النور ، فلا يعود - وهو المفتون - يهاب العاصفة ...

دفع لنغ [illegible] احتساه الرسام الشيخ من خمرة ، لان وانغ - فو لا يملك مالا ولا مأوى ، وقدم له مرقدا في بيته ، ويهما شطره ، وقد حمل لنغ فانوسا يريق ضياءه في برك نار مفاجئة .. وحين بلغاه ، أدرك لنغ فجأة في ذلك المساء ، أن جدران البيت لم تكن حمراء كما خالها ، بل كانت برتقالية ، يوشك لونها ان يفسد .. ولحظ يانغ - فو في الفناء ، شكل الشجيرة الرقيق ، الذي لم يسترع نظر انسان ، فأشبهه بغادة كاعب ،تدع شعرها يجف ،وراح يتتبع مفتونا دبيب نمل يتردد في الرواق على امتداد شقوق الجدار .. أما لنغ فقد أثار هذا النمل الفزع في قلبه ، حتى كاد ان يغمى عليه ، بيد أنه تمالك نفسه ، اذ جال في

خاطره ان وانغ - فو يهم بمنحه روحا واحساسا جديدين ، ولم يلبث أن أرقد الشيخ باحترام في الحجرة التي مات فيها أبواه ..

منذ أعوام خلت كان الحلم يراود يانغ - فو برسم صورة لأميرة من العصور القديمة ، تضرب في عود ، تحت ظلال صفصافة ، غير انه لم يعثر على المرأة التي توهم ان تغدو جديرة بنموذجه .. أما لنغ فقد استطاع تحقيق حلمه ، فوضع له زوجه تحت شجرة خوخ في الحديقة ، وراح وانغ - فو يرسمها مرتدية ثياب جنية ، وقد اكتنفتها غيوم الغروب ، انخرطت الصبية في البكاء اذ كان ذلك نذيرا بموتها ..

منذ ان اصطفى لنغ لـ النموذج ، وشرع يرسمه ، آخذ وجه الزوجه يذوي كزهرة تتعرض لريح لاهبة ، او تجابه مطرا ينهمر في الصيف ..
وذات صباح ، عثر عليها معلقة على أغصان شجرة خوخ مزهرة ، وقد تطايرت اطراف وشاحها الذي يضيق عليها ، ممتزجة بشعرها ، فبدت ارق مما اعتاده منها ، وأمست نقية كالجميلات اللواتي يحتفي بهن شعراء العصور الكاملة ، وكانت آخر من رسمها وانغ - فو ، الذي أحب هذه السحنة الخضراء ، التي يتقنع بها وجه الموتى .. واذ دأب تابعه لنغ على مزج الالوان ، فقد استلزمته هذه المهمة مواظبة مستمرة ، أنسته ذرف الدموع ، حزنا على فقد زوجته ..

طفق لنغ يبيع تباعا ، عبيده ، واشجار يشبه ، وأسماك ينبوعه ، كيما يزود المعلم بأوعية المداد الاحمر الارجواني الوارد من الغرب ..
واذ لم يبق شيء في البيت ، هجراه ، فأوصد لنغ خلفه باب ماضيه ، كما أضنت وانغ فو مدينة لم تتح له وجوه قاطنيها في اي سر ينبيء بقبح او جمال ..
راح المعلم والتابع يتسكعان معا في دروب مملكة هان (٤) ، وقد سبقتهما شهرتهما الى القرى ، فبلغت عتبة القصور المنيعة ، وانتهت الى ما تحت اروقة المعابد التي لاذ فيها بالشفق ، الحجاج القلقون ، وهم يرددون ، ان وانغ - فو قادر على ان يهب للوحاته الحياة ، بلمسة اخيرة من لون يضفيه على عيون من يرسمهم ، فأقبل المزارعون عليه ، يلتمسون منه أن يرسم لهم كلب حراسة .. وبادر اليه السادة ينشدون منه تصوير جنود .. بجله الكهان كما يبجلون حكيما .. وهابه الشعب كما يهاب ساحرا ، فغمر الفرح وانغ - فو ، من هذا التباين في الاراء ، الذي أساعفه على دراسة ماحوله من تجارب ، تشيد بفضله في وجل او اجلال ..
اما لنغ فقد مضى مستجديا الطعام ، ساهرا على رقاد المعلم ، مفيدا من اعجابه الشديد به ، بدلكه قدميه .. وحين لا يبرح الشيخ راقدا عند مطلع الفجر ، كان لنغ يسعى الى اقتناص مناظر خجلى كتوم ، متوارية خلف باقات من قصب ، وحين يلبث المعلم في المساء واهن العزم ، ملقيا ريشه في الارض ، يمضي لنغ لالتقاطها ، وحين يعتري المعلم الاسى ، متحدثا عن كبر سنه ، كان لنغ يريه والبسمة تسمو على شفتيه ، جذع الشجرة العتيقة راسخا مكينا .. وحين

يضحى لنغ جذلان يروي الفكاهات ،،
كان المعلم يبدي تواضعه ، مظهرا أنه ينصت اليه ..

وذات مساء ، وقد آذنت الشمس بالمغيب ، بلغا ضواحي المدينة الامبرطورية ، فأخذ لنغ يلوب باحثا لمعلمه عن فندق يمضي فيه الليل ، فعثر عليه بعد لأي ومضى يدثر الشيخ بخرق ، ثم رقد قبالته ليدفئه ، لأن الربيع يوشك أن يطل ، وأديم الارض المطروقة لا يفتأ جامدًا ، حتى اذا ما طلع الفجر ، راحت خطا ثقيلة تدوي في أروقة الفندق ، وسمعا همسات صاحبه الفزعة ، وتناهت اليهما أوامر صادرة في لغة وحشية ، فجاذبت لنغ رعشة ، اذ تذكر أنه سرق عند العشية فطيرة أرز لوجبة المعلم ، وما شك في أنهم أتوا ليوقفوه ، فراح يناجي نفسه :
من تراه سيعين وانغ - فو غداعلى عبور مخاضة النهر القريب ؟
دخل الجند حاملين فوانيس ، فرشح الضوء عبر الورقة المخططة بالالوان ، مريقا أنوارا حمرا أو زرقا ، انسكبت على عمراتهم الجلدية ، فاهتزت اوتارالاقواس فوق اكتافهم ، وراح الشرسون العتاة منهم يطلقون فجأة زمجرات بلا داع .. واضعين أيديهم الثقيلة على رقبة وانغ - فو ، الذي لم يستطع التوقف عن ملاحظة اكمامهم ، التي لم تكن تلائم لون معاطفهم .
تبع وانغ - فو الجند متكئا على تابعه ، وهو يتعثر مترنحا على امتداد الدروب غير المستوية ..

كان المارة المحتشدون يسخرون من هذين المجرمين اللذين ما اقتيدا الا لتضرب عنقاهما ، ويجذ رأساهما .. وكان الجند في شتى الاسئلة التي يطرحها عليهم وانغ - فو يجيبون عنها بتقطيبة وجه وحشيه ، وكانت ايديهما الموثقة بالسلاسل تتألم ، وكان لنغ اليائس يسارق معلمه النظر مبتسما ، لأنه - بالقياس اليه - من الصنف الذي يشتدميله الى البكاء ..
بلغوا عتبة القصر الامبرطوري ، حيث تقوم الجدران البنفسجية في وضح النهار ، شبيهة برقعة شفق ، فجاز الجند بوانغ - فو حجرات مربعة ، او مستديرة جمة ، يرمز شكلها الى الفصول والجهات الاربع كما يرمز الى الذكورة والانوثة ، وطول العمر ، وامتيازات السلطة ونفذوا من ابواب تدور على نفسها ، مصدرة لحنا موسيقيا ، منسقا كما لو انك وانت تجوز القصر ، مشرقا او مغربا ، تتصفح عجلان سلم الانغام كله ..

كان كل شيء موائما لاعطاء فكرة عن السلطة ، وعن حدة ذهن تفوق قدرة البشر ، وعن احساس المرء بأن أقل الاوامر التي تصدر في القصر ، ينبغي ان تكون حاسمة تثير الفزع ، شبيهة بحكمة الاجداد رق اللحن اخيرا ، وامسى الصمت أعمق ممن ينكل به ، ولا يقوى على الصراخ ، وما لبث خصي ان رفع بساطا ، فجاذبت الجند رعشة كأنهم نسوة ، ودلفت فرقتهم الصغيرة الى حجرة يتربع فيها على العرش ابن السماء ..
كانت الحجرة خلواً من جدران ، تدعمها اعمدة ضخمة من حجارة زرق تفتحت في جانب منها حديقة ذات جذوع من أعمدة رخامية ، انتمت كل زهرة نورت في ايكاتها ، الى صنف نادر من الزهر جلب مما وراء المحيطات ، بيد أنه ما من زهرة لها عطر ، مخافة أن يهتاج تأمل

التنين السماوي من طيب عطرها ..
واحتراما للصمت الذي غرقت فيه افكارهم فان اي طير لا يؤذن له بدخول السور ، بله ان يصيد النحل .. كما فصل جدار ضخم الحديقة عن سائر العالم ، لذا فان الريح التي تهب فوق الكلاب المنهوكة القوى ، وجثث المعارك لن تقوى على أن تجيز لنفسها مس كم الامبرطور .

كان المولى السماوي متربعا على عرش من يشب ، وقد تغضنت يداه كأنهما يدا شيخ هرم ، رغم أنه لما يبلغ العشرين من عمره ، وارتدى حلة زرقاء ترمز الى الشتاء ، وحلة خضراء تذكر بالربيع ..
كان بهي الطلعة ، بيد أنه جامد القسمات ، فحاكى مرآة موضوعة على علو شاهق ، لا تعكس سوى الكواكب والسماء المحرقة ..
جلس على يمينه وزير الملذات الكاملة ، وجلس عن شماله مستشار عذاباته الحقيقية .. أما جلساؤه الاخرون فكانوا مصفوفين عند أسفل الاعمدة ، مرهفين أسماعهم اصغاء اليه ، كيما يلتقطوا اقل كلمة تبدر من شفتيه ، اذ آلف التحدث خافت الصوت ..
قال وانغ فو – وهو راكع :
– أيها التنين السماوي ، أنا شيخ بائس ، وهن العظم مني واشتعل رأسي شيبا ، أنت كالصيف وأنا كالشتاء ..
أنت تحيا عشرة آلاف حياة .. وأنا لا أحيا الا حياة واحدة هي في سبيلها الى الانتهاء ..
ماذا أنت صانع بي ؟
لقد أوثقوا يدي اللتين لم تلحقا بك الاذى ..
قال الامبرطور في صوت بالغ الشجو على نحو آثار البكاء :
فيم لا تسألني – أيها الشيخ وانغ – فو – عما صنعته انت بي ؟
ثم ما لبث ان رفع يده اليمنى فانبعثت الانعكاسات على بلاط اليشب فبدت خضراء مزرقة ، أشبه بعشبة تحت سطح البحر ، وواهاج طول أنامله الرقيقة ، دهش وانغ – فو ، فراح يبحث في ذاكرته عما اذا كان قد رسم للامبرطور ، ولاسلافه ، صورة ردنيئة ، يستحق عليها الموت ، بيد ان ما جال في فكر وانغ – فو كان بعيد الاحتمال ، اذ أنه قلما كان يتردد – حتى ذلك الحين – الى بلاط الاباطرة ، مفضلا عليه اكواخ المزارعين ، في الريف ، اوضواحي البغايا ، او الحانات المقامة في المدن ، على امتداد الرصيف الذي يتخاصم فيه العتالون ..

أردف الامبرطور قائلا وهو يتلع عنقه النحيلة نحو الشيخ المنصت اليه :
فيم لا تسألني – أيها الشيخ وانغ – فو – عما صنعته انت بي ؟ واني مفض به اليك ،واذ أنه كسم الناس فلن يقوى على التسرب الينا الا عن طريق افواهنا التسعة ..ولكي أضعك حيال أخطائك ، ينبغي لي أن أتيح لك التجوال على امتداد أروقة ذاكرتي ، لتقص علي حياتي كلها ..
لقد جمع ابي اعدادا وافرة من لوحاتك ، في حجرة بالقصر أشد سرية ، اذ رأى أن على شخصيات اللوحات أن تظل مطروحة على مرأى من الجهلاء (٥) بأصول الفن ، على نحو لا يقوون على التغافل عنها ، وهي قائمة في هذه الحجرات التي ربيت فيها أيها الشيخ وانغ – فو ، كما نسقوا من حولي

الوحدة كيما يتيحوا لي أن أنمو فيها واكبر ، وجنبوا عن براءتي وسلامة طويتي تلوث الارواح البشرية وأبعدوا عني مد بواعثي المقبلة الهائج ، ولم يعودوا يأذنون لأي امرىء بالمرور حيال عتبتي ، مخافة ان يمتد ظل هذا المرء او تلك المرأة فيطالني ، •• وبدا بعض الخدم من الشيوخ ممن وهبوا لي أنفسهم أقل مما وسعهم فكانت الساعات تدور في اوقاتها ، وألوان رسومك تتأجج عند الفجر ، وتخبو عند الغسق ، وحين يتأبى علي الرقاد في الليل ، كنت أرنو اليها ، وقد ظللت طول ما يقرب من عشرة أعوام أرنو الليالي بتمامها أما في النهار ، اذ ، اتخذ مجلسي على البساط ، فقد كنت أعي الرسم عن ظهر قلب ، واضعا كفي الفارغتين على ركبتي ذاتي الحرير الاصفر ، وقد راودني فرحا حلم بأني سأتزود بالمستقبل ، كما هجس العالم في خاطري متخيلا وسطه موطن هان وقد ماثل سهلا رتيبا يشبه باطن اليد ، وهما يمخران خطوط الانهر الخمسة القاتلة وقد اكتنفها كلها البحر الذي تولد فيه الغيلان ، وعلى مبعدة منهما ، تقع الجبال التي تسند السماء ، ولكي أعين نفسي على استحضار هذه الاشياء كلها ، كنت استخدم لوحاتك فتثير أنت فيّ الظن بأن البحر يحاكي بساطا من ماء يمتد فوق لوحاتك ، وهو أشد زرقة من حجرة تهوي فيه ، ولا تقوى الا ان تستحيل الى لازورد ، وكانت النسوة يتفتحن وينغلقن أشبه بالزهر ، وهن يحاكين كائنات يتقدمن منطلقات بالريح ، في مسالك حدائقك ، وكان المحاربون الفتيان ذوو القامات الفارغة والقدود المشيقة الذين يسهرون في قلاع الحدود ، هم أنفسهم سهام تقوى على النفاذ في قلبي ••

وحين بلغت السادسة عشرة من عمري ، كنت أحد في الابواب نظري ، وهي تنفتح ثانية فتفصلني عن العالم ، فأرقى سطح القصر ، كيما اصوب بصري الى الغيوم ، بيد أنها كانت اقل جمالا من تلك الغيوم التي في شفقك ، وكنت آمر محفتي أن تترجح فوق دروب ، لا أمل لي في الظفر فيها بطين او حجارة وأسعى متجولا في أقاليم المملكة ولا رجاة لي في العثور على حدائقك الملأى بنساء شبيهات بالحباحب ، لأن اجساد نسائك هي نفسها حديقة ويباعدني حصى الشواطىء عن المحيطات ، ويبدو لي دم المعذبين أقل احمرارا من الرمان المصور في لوحاتك ، ويصدني دهماء القرى عن رؤية جمال حقول الارز وتجعلني اجساد النساء الحية أتجافى عنها كأنها لحم ميت يعلق على كلابات جزارين ، وتغثى نفسي من ضجك جنودي الغليظ •• الا انك قد منت علي أيها الشيخ الماكر وانغ ـ فو فما العالم الا أكداس نقائص غامضة ، القاها في الفراغ رسام أحمق لاتني الدموع تمحوها وليست مملكة هان بأجمل الممالك ولست أنا بالامبرطور ••

أن الامبرطورية الوحيدة التي تشاد عليها قوة الحكم هي ما تبدو فيها أنت أيها الشيخ وانغ ـ فو •• انها الطريق ذات الالف منحنى ، والعشرة آلاف لون •• فأنت وحدك الذي تسود في سلام ، جبالا يغمرها ثلج ، لايقوى على الذوبان • • أنت وحدك الذي تهيمن على حقول نرجس ، ليس في ميسورها الذبول ••

على هذا النحو رأيتني أبحث يا وانغ - فو عما ادخرت لنفسك من عذاب، تكرهني فيها الرقى على ما أملك، وتهب لي الرغبة فيما لا أملكه ..
ولكي أسجنك في الزنزانة الوحيدة التي لن تقوى على الخروج منها، فقد عزمت على أن احرق عينيك، ما دامت عيناك يا وانغ - فو هما البابان السحريان اللذان يفتحان لك مملكتك، وما دامت يداك هما الطريقان اللذان يفضيان الى الشعب العشر، التي تقودك الى قلب مملكتك، كما عولت على قطع يديك ..
فهلا وعيت قولي أيها الشيخ وانغ - فو ؟
ما ان تناهى الى سمع التابع لنغ الحكم على معلمه، حتى استل من حزامه مدية مثلومة والقى نفسه على الامبرطور، فأمسك به حارسان وبات وجه ابن السماء يندى تهللا، وهو يضيف متنهدا :
- كما اني امقتك ايها الشيخ وانغ - فو، لأنك عرفت كيف تأخذ الناس على محبتك ..
ولم يلبث ان أشار الى الحرس هاتفاً :
- اقتلوا هذا الكلب ..

وثب لنغ الى الامام كيما يحول دون سقوط نقطة من دمه، تلوث ثوب معلمه، فامتشق احد الجند حسامه، واهوى به على رقبة لنغ فجذها، فماثل زهرة مقطوفة ..

حمل الخدم بقاياه، وراح يانغ - فو القانط يتملى البقعة الجميلة الارجوانية التي خلفها تابعه الى البلاطة الحجرية الخضراء ..

أومأ الامبرطور فمسح خصيان عيني وانغ - فو ..
قال الامبرطور :
- ارهف الي سمعك أيها الشيخ وانغ - فو وكفكف دموعك، فليست الساعة ساعة بكاء، ولتظل عيناك وضاءتين، لئلا تفسد دموعك ما تبقى لهما من نور، فليس ما أصنعه بك حقدا فحسب، ارجو فيه موتك، ولا قسوة فحسب، ابتغي فيها رؤيتك تتألم، لا، بل لدي نوايا أخر أيها الشيخ وانغ - فو .
فلقد اقتنيت من آثارك التي تضمها مجموعتي صورة رائعة تنعكس فيها الجبال، وتبدو فيها مصبات الانهار والبحر، وهي ولا ريب مصفرة غاية الاصفرار، وان كانت اشد وضوحا مما في الاشياء نفسها، وهي أشبه بالصور التي تتراءى على جدران كوكب سيار، بيد ان هذه الصورة لما تكتمل بعد يا وانغ - فو، وأن رائعتك هذه ما برحت رسما اوليا، ولن يساورني شك في انك في اللحظة التي رسمتها اقتعدت الارض في واد منعزل ومضيت ترقب طيرا يمر، او صبيا يقفو اثر هذا الطير، ولقد أنساك منقار الطير، او وجنتا الصبي، أجفان الامواج الزرق، فلم تنبه اهداب معطف البحر، ولا فرغت من شعر طحالب الصخور، لذا فانني أبتغي منك يا وانغ - فو ان تكرس ساعات النور التي تبقت لديك لانجاز هذه الصورة التي ستضم على هذا النحو اسرارك الاخيرة المتراكمة في ساحات حياتك المديدة، ولن يخالجني ادنى شك في ان يديك توشكان على السقوط، وانهما لن تقعا على القماشة الحريرية، وأن الله سينفذ في اثرك تظليلاته (٦) من الشقاء .. كما لن ساورني ادنى شك في ان عينيك تهمان ان

تمسيا منهكتين فانيتين ، ولن تكشفا عن العري التي توثق بها الاحاسيس الانسانية ..

تلك هي خطتي - أيها الشيخ وانغ - فو واني لقادر على الزامك بانجازها ،فان تنكبت عنها وتأبيت قبل أن اسمل عينيك، فسأحرق آثارك كلها وستغدو عندئذ أشبه بأب جذوا رؤوس ابنائه فقوضوا آماله في ذريته ونسله . لذا فالاجدى لك ان تصدق ماقلته ان انت ابتغيت ان لا يضحى تحذيري هذا الا اثرا من آثار طيبتي وحلمي ، لأني عليم بأن اللوحة هي المحظية الوحيدة التي ما فتئت تغازلها ، واني مقدم لك ريشا والوانا ، ومعينك بمداد تشغل بها ساعاتك الاخيرة ، وان صنيعك هذا ، لايعدو صدقة امرأة بغي ، لامرئ يوشك على مفارقة الحياة ..

اومأ الامبرطور بأنملته الصغيرة فحمل خصيان باحترام ، اللوحة التي لم يتم وانغ - فو رسمها عن البحر والسماء ..

كفكف وانغ - فو دموعه وقد خفقت على شفتيه ابتسامة ، لأن المخطط الاجمالي الصغير ، البادي في اللوحة ذكره بشبابه ، فكان كل شيء فيه يشبت له مؤكدا نضارة روح ، لم يستطع وانغ - فو ادعاءها ..

بيد أن ثمة شيئا كان يعوزه ، اذ أن الزمن الذي رسم فيه وانغ - فو الصورة ، لم يكن يديم فيه تأمل البحر وهو يغمر منحدرات الجبال والصخور العارية ،كما لم يكن يفرط في التغلغل في أحزان الشفق

انتقى وانغ - فو احدى ريشه التي احضرها له خادم واتخذ مجلسه منبطحا على مقربة منالبحر الذي لم يستكمل عرضه الازرق المنساب ، وجثا خصي عند قدميه يمزج له الالوان ، مؤديا عمله على نحو سيء ، فلم يأسف وانغ - فو على شيء أسفه على تابعه لنغ ..

شرع وانغ - فو يلون بلون الزهر تلوينا خفيفا طرف جناح غمامة ، تتكيء على جبل ، ثم أضاف الى صفحة البحر تموجات صغيرة ، لا عمل لها الا اعادة صفاء احساسه اشد عمقا ، فأضحى بلاط اليشب بخاصة ، رطبا ، واذ ان وانغ - فو كان يمضي في تصويره مستغرقا ، لم يتبين انه كان يرسم قدميه في الماء ..

كان الزورق الخفيف ينمو تحت ضربات ريشة الرسام الذي انهمك الساعة بكل التصميم الاول للفيفة الحرير ، فأخذت ضجة المجاذيف المنغمة ، تعلو في البعد فجأة ، وتبادر حية كأنها رفة جناح .. دنت الضجة فغمرت القاعة هادئة ثم انقطعت ، وارتعشت قطرات ثابتة ، معلقة بمجاذيف ربابنة ، الزورق ، وخبا فوقنار الجلاد منذ امد مديد ، الحديد الاحمر المرصود لعيني وانغ - فو واستوى فوق صفحة الماء على اطراف قدميه فبلغ اكتاف حاشية الامبرطور التي شلت مراسم البلاد حركتها وبلغ الماء في النهاية مستوى القلب الامبرطوري ، فساد صمت عميق ، جعل الحاشية تنصت الى انهمار دموع ..

لقد كان ذلك لنغ حقا ، مرتديا ثوبه البالي الذي لم ينضه عنه طوال ايام ، وبدا كمه

الايمن الذي حمل بدوره آثار خرق، لم تسنح له الفرصة برفئه في الصباح قبل مجيء الجند الى الفندق ، بيد أنه كان يلف حول عنقه وشاحا احمر غريبا ..
قال وانغ - فو لتابعه لنغ في هدوء وهو دائب على الرسم :
- لقد خلتك فارقت الحياة ..
اجابه لنغ في احترام :
- انى لي أن اموت وأنت حي ..

وما لبث ان اعان المعلم، على صعود زورق ، فانعكس نور سقف اليشب على الماء ، على نحو بدا فيه لنغ وهو يقود الزورق من قلب كهف ، وتموجت ضفائر الحاشية المرهقة ، كأنها الافاعي ، وطفا رأس الامبرطور الشاحب كأنه زهرة لوتس ..
قال وانغ - فو وقدغمره الاسى :
انظر يا تابعي .. ان هؤلاء التعساء سيهلكون ، وان لم يتم بعد هلاكهم ، وما ظننت ان قد كان لديه ماء في البحر كاف ليغرق امبرطورا ، فماذا تراني صانعا ؟
همس التابع لنغ :
اياك ان ترع أيها المعلم ،فعما قليل سيلفون أنفسهم بلا ماء ولن يتذكروا حتى أن كمه كان مبتلا ، اما الامبرطور فهو وحده الذي سيصون في قلبه اليسير من مرارة ماء البحر ، واما هؤلاء فماخلقوا ليتلاشوا داخل صورة ...
ثم أردف قائلا :
ان البحر جميل ، والريح رخاء، وطيور البحر تبنى عشها ، فلنمض يا معلمي الى موطن أبعد من الموج ...
هتف الرسام الشيخ :
فلنمض ..

استوى وانغ- فو على دفة الزورق ، وانحنى لنغ على المجاذيف ، فأفعم ايقاعها القاعة كلها ، فكان قويا منتظما أشبه بقلب صاخب ، وأخذ مستوى الماء يتناقص رويدا رويدا حول الصخور العمودية الضخمة ، التي أضحت ثانية أعمدة ، وما لبثت بعض برك نادرة ، أن راحت تتألق في وهاد تبليط اليشب ، وطفقت ثياب الحاشية تجف ، اما الامبرطور فقد احتفظ ببعض ندف من الزبد في هدب معطفه ..

كانت اللوحة ذات الاطار التي انجزها وانغ - فو موضوعة على بساط ، وقد شغل الزورق التصميم الاول كله ، وراح ينأى رويدا رويدا مخلفا وراءه اثرا شفيفا ينغلق على البحر الجامد .
لم يكونوا من قبل يميزون وجه رجلين جالسين في الزورق ، بيد أنهم كانوا يتبينون بدورهم وشاح لنغ الاحمر ، ولحيةوانغ - فو وهي تتطاير في الهواء ، اما حركة

المجاذيف فكانت تتضاءل ، ثم تنقطع وقد عطلها البعد ..

وكان الامبرطور محنيا الى الامام واضعا يده على عينيه ، محدقا الى الزورق وهو يبتعد بوانغ - فو ، الذي لم يكن الساعة - وهو في صفرة الشفق - اكثر من بقعة في غاية الدقة .. وعلا بخار ذهبي اخذ ينتشر فوق البحر ، وما لبث الزورق أن دار حول صخرة ، كانت تسد مدخل عرض البحر ، فسقط عليه ظل شاطىء صخري ، ثم أمحى اثر سير الزورق من السطح الخالي ، فتوارى الرسام وانغ - فو وتابعه لينغ الى الابد فوق هذا البحر من اليشب الذي ابتدعه وانغ - فو ..

انتظار الرحلة الملغاة

محمد زهير الباشا

قصص سعودية قصيرة

تأليف: محمد المنصور الشقحاء

* صدرت عن نادي القصة السعودي ، " الجمعية العربية السعودية " للثقافة والفنون – الرياض .
* الغلاف : للفنان فهد الربيق
* الرسوم التوضيحية : احمد خوجلي
* مطابع الفرزدق التجارية

* بناء القصة ومنهجها الفني:

اكتملت القصة القصيرة نضجا على يد الاديب الفرنسي – غي دو موباسان – منذ النصف الثاني من القرن التاسع عشر .. فكان يرى ان الرواية لا تصلح للواقعية .. رغم أنه كان ينتمي الى الطبيعيين من أقرانه الادباء ، فالقصة القصيرة تصلح للواقعية ولتصوير المواقف والازمات بلحظات عابرة خلال حدث معين لا يهتم بما قبله ولا مابعده .

فالقصة القصيرة تصور شخصياتها ومضامينها وأحداثها في لحظة هي لحظة التنوير والعطاء الفني – المتكامل ..

* بداية هذه المجموعة القصصية تصوير حاد لأزمة نفسية ،ولغرابة في موقف ، وتستمر هذه الازمة بتعقيدها للحادثة وقد تناولت الحوار وتفاعله فيدلي المؤلف ورقة بالتعريف ثم ورقة بالتوضيح وتكون القصة قد انتهت .. ففي قصة (اسطورة حب) يخيم جهل الام بالرضاعة دون ان تنطوي على اي عنصر من عناصر محاكمة الذات او المحاكمة الاخلاقية ..

ان هذا الجهل انتهاك انساني له قرار أصدره المجتمع دون اي اعتبار أن المولودة آثمة .. فعلى من يقع هذا الاثم ..

الاثم بهذا النسيان يدفع ثمنه الابن الذي طرد من أحضان السعادة التي عاش فيها ثمانية اعوام ، وأثمرت ابنة .. فلماذا يجري الشقاء دون أن تدفع الام الجاهلة جزاء جهالتها وهي التي تتذكر حادثة الرضاعة بعد ثمانية أعوام .. لا أحد يدين قرار الفصل .. وانما الاداثة تتلبس هذه الام .

ولماذا تقوض عروش السعادة والهناءة من أجل هذه الخطيئة بعد ان يستيقظ وعي الام ؟ لعل وراء هذه الاكمة ما وراءها .. وهذه أمور لا تدركها الا مكائد المرأة ..

وسار منهجه الفني عقب البداية – المتأزمة – متجها للترابط بين عناصر القصة الى الذات الانسانية ومعانيها وألوانها ، وما هي المفارقات التي عاشها أبطال نصوصه في حياة ملأى بالتناقضات فاختار من مخزون علاقاته الاجتماعية

ومن تفاعلاته عقب الرؤية التي تستنشق العلاقات وحدودها والتفاعلات وما ترصده من الاوزان النوعية للانسان في مجموعة - بعيدة - عن التجريد والتعميم ، موضحا طريق اختيار هذه الذات وهو يقتضب من التقرير والسرور المباشر .. ويوجز من الاوصاف ..

* المؤلف في نصوصه كان يحمل معه زاده الفكري والاجتماعي مع بصيرة نفاذة في العوامل المتحكمة في مصير شخصياته وفي تدفق - طبائعهم - وتشابك علاقاتهم .. ومن خلال هذا البناء الفني تتلمس هذا الارتباط الحي بين النص ومؤلفه ، بين الذات ووقائعها .. بين الملامح الاصيلة وسلوك شخصيات تبدو عقلانية ضمن ساحة من التحرك الارادي والمؤلف يتطلع الى المزيد من التحضر للتمكن من معرفة الذات .. ومن الحياة الافضل ..

* حرص المؤلف على ان تكون قصصه حيوية النسغ في كل أحداثها فكان يحدثك من داخل تجربته وفي لجوئه الى نوع من التواصل ليعبر عن حقيقة النفس البشرية .. التي تعاني من الانماط المهترئة . . ففي قصة - ترديدات - التي نشرتها مجلة الثقافة الاسبوعية بالعدد ٣٧ تاريخ ١٠ صفر ١٤٠٨ هـ - ١٩٨٧/١٠/٣م

تقرأ - التسكع وهجر الدراسة - وهما من مستلزمات البناء الفكري في كثير من هذه النصوص .. أما الترديدات فهي توضح الحب العميق بمدينة الاشباح والضياع - وكل طرق المدينة تؤدي الى خارجها . . الترديد ورد خمسا وهو في حالة من الحب المقيد . . الحب خنجر مسموم في صدر العاشقين

* أفكار هذه الذات جلية فهي (تكتب الشعر وترحل ، يتزوج ابوه ويرحل .. يفشل بالدراسة ويرحل.. تزوره الجارة في غرفته ولم يجد لها صورة عنده فيرحل .. وهي لم تمارس الحب منذ الف عام ..لكنها تركته (كومة من الاشياء القديمة) فرحلت عنه ..

انها شخصية نموذجية لهذه الغربة وهذا الالتصاق بالرحيل والضياع وأمام صفحات أيامها تعثر على دمعة تروي ان ضياعه استمر في (وظيفة) ولم تكن لتشارك العيون المتلصلصة في النوافذ وبالابواب الموازبة ..

(الضياع .. الغربة . . الفشل .. الخيبة .. الوهم .. الخ) نتائج مصيرية لمعاناة قاسية يحركها البحث عن حب .. وعن قلب وهي عاجزة عن التلاؤم مع البيئة رغم - الابواب الموازبة .. والمكالمات الهاتفية .. والصور - المخبأة - بين الاوراق عن غير قصد ..

وقد كشف خلال هذا التواصل عن عنت البيروقراطية وعن التعامل مع الملفات .. ففي قصة النتائج المرتقبة نعرف (كم هو المبلغ .. وقد اقتحمت سارة دماغه .. واستنجد خالد بزوج سارة وسارة زوجة حسناء ، وبقيت ريشة المؤلف في حالة غضب وفوران لأنها واقفة (على اطراف اصابعها منذ مليون عام) ..

* وسار المنهج الفني على ان يستقي شخصياته من الاناس البسطاء فشخصية العم سعد الفراش في - الهدوء الممل .. لا يشفى من السأم والصداع فقد هجر الدراسة ليعيش في ضياع قاتل ..لكن قصة الرغبة تصور شخصية البطل بجدارة

حين عربدت شهوة ام سمير فاستسلم امام دموعها .. ولما شعر بوخزة الضمير ظن ان (العيون تلاحقه ولم يعد رجلا طيبا) .. وتمكن المؤلف من أن يرسم الملامح المتقلبة في أمزجة متقلبة .. تناقض الترسخات القديمة، وهي لا تستطيع أن تزين أمزجتها بالسمات الطارئة .. فتأجير الوافدين الذين يحملون معهم عاداتهم وطرق معيشتهم جعلت - الثرثرة - منزل أم سمير بيتا سيء السمعة ..
(وعلى التعميم تدرك أمثال هذه التهمة وهي تلصق على بيوت الوافدين) .

ليس سهلا الولوج الى الذات والغوص بالامزجة لكن النصوص تروي بالكلمة الموجزة معنى الانسان المحدد اذ كيف تخرج زوجة صالح من دار ام سمير دون اذن من زوجها صالح ويخرج في الوقت نفسه حمود ابن عم صالح .. فالشك يقتل صاحبه .. وصالح يقتل ابن عمه بثلاث رصاصات في رأسه فلماذا قتله ؟ ..
ان الوهم بالقتل قد حل مشكلة الترسخات القديمة بنهاية خيل اليه أنه القتل المتعمد ، وهذه الترسخات عقدت الذات وشكلتها على الكبت والانفعال ..

* وحرصا على ان يكون بناء القصة متكاملا كانت النصوص تتحدث من داخل التجربة في تواصل فني ولجوء الى استمرار هذا التواصل ليكون حقيقة متفاعلة مستقاة من لوجود بمظهر فني يحفظ للهيكل أبعاده دون اي تدخل او سيطرة على تحرك الشخصيات .. فان انطلق البطل من / الحب / ومآسيه تقلبت أوجاعه وانعدمت سعادته وتلاشت ابعاده ..

وقد جعل من المستحيل عملا معبرا في ولوجه العوالم الداخلية لأبطاله .. فاطردت أبحاثه عن طبائعهم وهو يشعرك انه يقتلع من هذا المستحيل شخصياته .. فتقرأ أفكارها وان أوجز ، وتبحث عن مفاتيح لحل أزمتها وان وضع الازمة وما تلاها دون مشاركة في اي حل .. فشخصية / عبد الرحمن / عاش مع ارواحه وكان غائبا عنه الاف السنين .. وهو يحتفظ بذكرى حادثة هي اللحظة الحرجة المحفورة كالنقش في صخر .. لما زرع قبلة في صدرها المكشوف بصمت وحذر ، وعمره خمسة عشر عاما الى أن أعيدت النظرة الى مثل هذه الحادثة الحرجة (فاختفى الاثنان في اول منعطف قابلهما) ..

فما الذي يحدث لهؤلاء الابطال في هذه النصوص والعيون والالسنة تحوم حولهم ، وهم يكابدون الضياع والاغتراب والخيبة والوهم .. والعجز امام الصور المتطورة ، منهم من يسقط في حوادث ، ومنهم من يقضي عليه بالانفصال عن زوجته .. ومنهم من يطرد من عمله ، او يسجن في قصة / عبث الحياة / وتسقط البطلة لتنقذ زوجها ولتدفع عنه الديون، ومنهم بطل يشارك بدمعة من أجفانه ثم يستسلم للنوم وقد أغفى عن صراخ - انسان غير طبيعي .
هذه الشخصيات تعاني ما يسمى بالعدم والعبثية ظاهريا وعيونها لا تقبل الصمت لكنها تعاني أيضا من الانقسام الذاتي وانشطاره وتوزع قيمه وصولا الى الصمت والاحلام والانكفاء على الذات .

وتضغط الاحداث فنجد المزيد من تكثيف الاحداث فالمؤلف يوجز فيها ويترك للقارئ تصوراته لكل نهاية على بساطة واعتراف ، فاطمة - ان (صالحا كان الاول بحياتها) وزوجها خالد يحمل قلقه او ارتيابه .. ام انه أسدل الستار عن ماضيها واكتفى بجمالها وبمكانته الجديدة في الشركة عقب وفاة صالح ؟ .. وقد حقق ذاته فورث الوظيفة والزوجة معا .

وتبقى الملامح الانسانية - المادية منها - مبتسرة لكن الملامح الفنية أصيلة ذات جهد يتطلع الى التحضر المتمكن من الذات ..

* ولهذه الموهبة الفنية قدرة على الا يقع فنه في مهاوي التجريد والتعميم والتفخيم . . فليس في منهجه الفني اللغوي - مجردات لفظية ، ولا اي سرد تقريري يفقد القصة حيويتها وانما جاءت محافظته على الارتباط الجاد بين الحدث وبطله .. بين الازمة وحوار أبطالها .. بين البداية المستعصية على الحل .. الى نهاية مفترضة الحدوث . ..

في نصوصه يشعرك أنه يتخطى حدود التجربة لأنه يتخطى الزمان والمكان بلغة بسيطة واضحة ، فهو يعاني بمشاعره المتوثبة لواعج أبطاله عن صدق التعبير بنفس نقية تحلق في اجواء الموعجات ليستخلص منها بتراكيب لغوية اروع ما في الذات وأقسى ما تجابهه ، وأشقى ما تصادمه .. انها مكابدة لا أشد ولا أبدع مما تجد في هذه الملامح المتسارعة وصفا وقيمة ..

في قصة ترديدات قد صورت النشال المحترف وقد خرج عاريا . بالتلاقي مع صوتها عبر الفضاء ، وقد ترك للعيون والنوافذ الابواب والهاتف أن تجول في هذا النص وفي أكثر نصوصه ..

واذا سمعت عبارة (علشان خاطري خليهم في الشقة) فليس معنى ذلك أن المؤلف يكثر من اللغة المتدولب
أن المؤلف يكثر من اللغة المتداولة بل جاءت تمثيلاتها في حوار مقتضب ، تخفي هذه الكلمات عواملها الخاصة دون ان تكون مختفية اختفاء الحوادث المبتسرة وعلى الرغم من - هذا الافتقار العاطفي - فان اللغة في هذه النصوص قد تلاءمت بتصويرها لفقدان الذات ولتلف الاعصاب وللصدمة المفاجئة في حين وصول الزوج - والصديق الساعة الحادية عشرة فيدلي الصديق بصرخته الجارحة : هل انت على موعد معها (قصة انتظار الرحلة الملغاة)

ان قدرة المؤلف على الامساك بخيوط المحتوى جعلته لا يحرم شخصياته من سبل التعرف عليها فهي تلقي مشاكلها بالتتابع الذي يحرق المسافات ،ويركز - بايجاز لغوي - العوالم الداخلية فيبرزها ويجعل بعضها في الساحة المرئية وكأنها أمور محسوسة .. فترامت الاحداث في تفاعل مركز بيئة - الطائف - الرياض - القاهرة - وتستمر البطولة فينجاتها وهي ترسم مجموعة احاسيسها وفارس الاحلام تنتظره فتاة منوراءنافذة .

ليس في هذه النصوص شخصيات متعفنة او شاردة عن الطبيعة البشرية / سوى ما اورده في قصة يوم بدون ساعات / حين تعرض هاشم

لحادثة خطف فكاد ينتحر ويشعل النار والجمهور يصرخ واعتقال هاشم كان ضحية لاستحالة شقائه ضمن العلاقات السائدة .

ويبقى الحضور الفني - اللغوي - متماسم الحلقات ، كلي النزعة ،على أن تكون القصة قد احتوت كل شيء بأقل شيء من الالفاظ والحوار .. وهنا تكمن قدرته على متابعة نتاجه القصصي، تصل الي فن يوجز لك الحدث بألوان سريعة تتحرك .. بجاذبية وسحر بيان ..

* معالم ازدواجية الزمن المرصود:

تمر الصورة الزمانية في أطر نفسية يجذبها الحاضر وكأنها الجحيم المعقد المنبعث من علاقات الغربة والضياع ،فيجعل الصورة آنية حاضرة قد تبدأ ظروفها من ثلاثة أيام الى عشرين عاما الى ألف عام الى ثلاثة الاف عام .. الى آلاف السنين الى مليون عام .. فلا يحرم النص اي زمن بل يهيء الصورة على مجرى التواصل - حاضرا امام الاعين ، فان ثقلت الذكريات واشتدت حالة التوتر يتحرك الزمن الى مالا نهاية وقد املأ الفراغ كله متجاوبا مع الاحداث على ايجازها .. وهنا تبرز قيمة العمل الفني بمواجهة هذه التناقضات وهذه (المعاكسات الزمنية) المتحركة بدوافع متباينة ..

* الصور الزمية ترمي الى الازدواجية فتتكشف مدى بلوغ الذات أهدافها وكيف كانت الامال في خيبة مشفوعة بالاخفاق وملاحقة صاحب الهوى ..

إنها الصورة الزمنية في اسوداد النظرة وهي تعاني من آزمة عمرها يتناسب ومعايير الذات ومواقفها اوغياب الذات ، كما في انتظار الرحلة الملغاة . والزمن على نمط التفاؤل يتكامل ان لم يتناقض دون اقتتال فيه ، وتأتي لحظة الفتل وهي يبتلع الحديث كله وكأن البطل قد أتقن حفظا وممارسة : (أفضلية المرور للاخرين .. للقادمين من الابواب المواربة) ..

ويجول في الزمن - انسانه - مستعينا بلغة لا تترك للزمن ان يضيف الوانا الا بما يخدم اتساع الفراغ بدلا من الكتابة المتراخية فتشتد الصورة الزمنية في ترحالها وتتدرج في مراقي غير مستقرة .. ويضيع الانسان في تشتته ضمن محاولات جادة لكن الخيبة هي الصورة المناقضة للزمن ، المتمثلة فيه .

* في نصوصه سرعة توجه الزمن بلا عناء للبصر ، وتتمثل فيها هذه الحركة لتعرف كيف أمسك المؤلف الزمن بين يديه وكيف أنهى الموقف تاركا الزمن بين القمة والقاع مثله كمثل البطل في مكان التبس عليه اليأس وهو غير قادر على بناء ذاته .

* وارتسمت على الصور الزمنية صرخة الوهم ،وتسامت فيها ، مع الصمت والاحلام .. فأتقن المؤلف البناء - الزمني .. في مجموعته القصصية .. فكانت هذه الصورة الزمنية تخفظ له الانسجام في توالي الاحداث التي انغمست في تلافيف زواج غير مرغوب فيه ، اوفي نزوات شيطانية تشاع عن بيت سيء السمعة ، وأبوابه مواربة انها الصور الزمنية ارادها المؤلف لتكون احدى حقائق ما كتب في غروب للذات لعلها تظهر دون اي تصحر مأساوي يملأ غبار الاحداث

* وعلى التأكيد فان المؤلف استطاع ان يتحدث عن عالم المرآة، فاكتشف احابيلها، وأوضح العشق المتربص والمتوهج في أعصابها، وكان وعيه للادوار التي نسجتها المرأة متيقظا لما منحت هذه النصوص المزيدمن الحيوية فكانت المحرك المتأزم تشد أعصاب الزوج المختار لها بامرة / رب الاسرة / وهي قد أعطت فارس احلامها قلبها .. فضاعت منه في ازدحام الشوارع ثم (اسودت الدنيا في أنظارهم وضاعوا)وظلت العيون تترقب عودة الفارس.

وعلى جناح السرعة وشفافية اللغة والحوار .. يبدو عالم القصص مزيجا من الضغط على الذات فيسحق / الانسان - الرجل / وهو يتنقل من يد امرأة الى يد زوجة .. الى ذكريات تهر ارادة / الرجل / ويلقي مسؤولية ضياعه على الزمن دون الفصل بين المضمون والشكل ..

فيصبر على هذا الحلم اللقاء الف عام..

وهويتساءل على مذهب الشك والارتياب ..

هل هي التي يقابلها - الان - هي التي كان يسمعها بالهاتف فيشقى الوجدان به، وبقي وحيدا يشقى بالحلم - واللقاء الف عام. من جديد ويغير مجرى حياته ليناجي - الحلم - الوهم - فموت الحب عند - بيكيت - يمثل ولادة عمل لم يكتمل بعد ...

وعند مؤلف هذه المجموعة النابضة بالحلم .. لا يموت الحب بل تكتمل حقيقة واحدة هي العطاء المثمر.. المتجدد منذ الف عام وعام.

قال ابو العتاهية :

ان أخاك الصدق من كان معك	ومن يضر نفسه لينفعك
ومن اذا ريب الزمان صدعك	شتت فيه شمله ليجمعك

القاسم

الحكيم بن عكرمة

تقولُ بُثَيْنَةُ إذْ أنكَرَتْ قُنُوءًا من الشعرَ الأحمرِ

براسي كبِرْتَ وأوْدَى الشبابُ فقلتُ مجيباً لها أقْصري

أما كنتِ أبصَرْتِني مرّةً ليالِيَ نحنُ بذي جَوْهرِ

ليالِيَ أنتُمْ لنا جيرةٌ ألاَ تذكرينَ بَلَى فاذْكري

وإذ أنا أغيَدُ غضُّ الشبابِ أجُرُّ الرِداءَ معَ المِئزَرِ

وإذْ لِمَّتي كجَنَاحِ الغُرابِ تُرَجَّلُ بالمِسكِ والعَنْبَرِ

فغيَّرَ ذلكِ ما تعلمينَ تغيُّرُ ذا الزَّمَنِ المُنْكَرِ

وأنتِ كلؤلؤةِ المَرْزُبَانِ بماءِ شبابكِ لَمْ يُعْصَرِ

وقد كان مضمارُنا واحداً فإني كَبِرْتُ ولم تكْبَري

الجماهير فوق الخوف

شعر: حسن حسن



مضيت ابحث في كرمي عن العنب ... فما وجدت به شيئا سوى الحطب

يا هول ما صنع الحساد من عبث ... أودى بجهدي وأبلى الفرس بالعطب

أوشكت من ألمي أبكي فجلدني ... على الدموع جميل الصبر بالنوب

يا للفجيعة اهل الشر كم كثروا ... وكم تناقص أهل الفضل والرتب

قل الوفاء وأضحى الحق مرتهنا ... بين الانام بما للمرء من غلب

قل الوفاء وقل الحرص في زمن ... فيه المودة ألوان من الكذب

ياكرم حسبك ما أفنيت من جسدي ... كيما تصير وما قدمت من تعب

قد كنت حلمي لأبنائي فمن قتلوا ... في الاماني عليهم سخطة الغضب

هذا التراب غرير من تحرشه ... يوما سيعرف طعم النار واللهب

نوازع الشر ان ارضت وان نفعت ... حينا تدور على الاشرار بالوصب

يا للزمان الذي أدمت صنائعه ... صدر الكريم واهل السوء في لعب

من اشتكي عنده همي فينصفني ... مما أكابده من صرعة الشعُب

كل ابن أنثى على ماصار مرتعه ... فيما يمارس من قبح ومن أذب

قرأت سفرك يا دنيا فما اختلفت ... فيك التجارب عما جاء في الكتب

الظلم شرعك بين الناس مترفهم ... طاغ ومعدمهم في القهر والسغب

يجري الزمان ولا تجري عواديه ... الا على رجل مستضعف ترب

أما الغني فان المال أفسده ... حتى بدأت ترى فيه أبا لهب

من كان يحسب ان اليمال غايته ... فالنار مثوى الذي يختال بالذهب

قل للألى صنعوا مجدا بلا تعب ... لا يرفع المرء في مجد بلا تعب

كل العروش التي من عهد آدمنا ... قامت على الظلم عبر الدهر والحقب

ما من نعيم ارى الا بجانبه ... حقا مضيعا تولاه ذوو الرقب

اني لأعجب ممن لا اهتمام له ... الا الملذة اني منه في عجب

يلهو عن الوطن الغالي بلذته ... مثل الوضيع الذي يلتذ بالحرب
هذا التراب الذي نحيا بجنته ... يدعو لنصرته الاشراف في العرب
هذا التراب وبالتاريخ ومضته ... زهو الفتوح على أيد من النجب
أين الكماة التي مدت بوارقهم ... بالماضيات جيوش الغزو لم تخب
انا نفاخر أنا من سلالتهم ... واننا خلف الاسلاف بالنسب
فكيف نفخر والاعداء تمطرنا ... برا وبحرا وفي الاجواء بالغضب
والمترفون نسوا الا مصالحهم ... ناموا بفسقهم عن كل مستلب
وكيف نفخر والحكام في وطن ... باعوا القضية يوم الروع باللقب
ما قيمة الملك اسما دون مكرمة ... ما قيمة الحكم عند الحاكم الثلب
آلت الينا من الحكام طائفة ... عبر الزمان تداري كل مغتصب
نامت على ضعة زلفى لسادتها ... لم يعطها النوم الا ذلة الارب
تبقى الجماهير فوق الخوف صولتها ... ضد الطغاة وفوق الشك والريب
تبقى الجماهير زحفا خلف قائدها ... تستأثر الموت او تعلو على الشهب

حسن حسن

اللاذقية

قال ابو العتاهية :

بكيت على الشباب بدمع عيني ... فلم يغن البكاء والا النحيب
ألا ليت الشباب يعود يوما ... فأخبره بما فعل المشيب

قصة قصيرة

عن الثقافة الباكستانية

لحظات

بقلم: طاهر نقوي - الباكستان
ترجمة: هالة حجار

■ وأخيراً وجدت متسعاً من الوقت لأجلس في حديقتي وأرتاح . كل شيء حولي كان هادئاً ساكناً .

وبينما كنت جالساً هناك ، أخذ الهدوء ينفذ إلى عقلي ويؤثر فيه ، وسرعان ماغلب علي الشعور أن ثعباناً قد أطل من بين الأشجار وزحف نحوي ودخل جسدي . وفجأة ارتعدت أوصالي ، إذ تعمق الشعور في داخلي متوجهاً الى عقلي فسدَّ الطريق أخيراً أمام كل تفكير سليم .

في الحالة النفسية تلك ، أحسست أن شخصاً كان يرقبني من خلف شجرة أو سياج وأنه كان سينقض علي ويمسك بخناقي بيديه الاثنتين ويمنعني من التنفس ، ثم يأخذني بعيداً ويرمي بي في كوخ قذر . وشعرت بحرقة بعينيّ وجفاف في حلقي ، وحاولت أن أصرخ مستنجداً ، ولكن صوتي خانني . ومن فرط الذعر أمسكت بعنقي بيدي وحثثت الخطى نحو حجرتي .

قلقت زوجتي عندما رأتني في تلك الحال ، واقتربت مني . أفلتُّ عنقي وحاولت أن أتكلم ، فما كان في وسعي أن أنطق إلا بأصوات مبهمة . أسرَعت زوجتي وأحضرت لي كأساً من الماء ، فشربته دفعة واحدة . لينَّ الماء حنجرتي ، ولكني لم أستشعر أيما ارتياح .

سألتني زوجتي :

ـ ماذا حدث بهذه السرعة ؟ إنك شاحب جداً ، وعيناك جاحظتان .

ولم يكن في استطاعتي أن أتكلم . أغلقتُ باب الحجرة والنوافذ وجلست بالقرب منها .

ثم مالبثت أن أحسست بالضيق لانحباس الهواء وكذلك زوجتي التي راحت تتعرق . نظرتْ الي كأنها ترجوني أن أفتح النوافذ ، ولكن عندما لم أستجب لها ظلت صامتة .

وجلسنا الى مائدة العشاء . كانت عيون الأولاد مملوءة بالدهشة . نظروا إلي أكثر مما نظروا إلى طعامهم . أما أنا فقد حرصت على ألا أنظر إلى أحد منهم ، فما كنت أريد أن يسألوني عن أمري . وظلت زوجتي مستغرقة في شجونها . وعندما سألتها عن سبب صمتها ، رفعت رأسها وحدقت إلي كأنها أفاقت لتوها ، فأوقع ذلك الذعر الشديد في نفسي .

آويت إلى فراشي مبكراً ذلك المساء ، ولكني أنفقت الليل مضطرباً .

.. وفي صباح اليوم التالي ، صحوتِ وأخذت أستعد للذهاب الى العمل على مضض . لاحظت أن سلوك زوجتي ، مثل سلوكي ، لم يكن عادياً ، ولكني لم أهتدِ الى تفسير لذلك .

دخلت مقر عملي ، وكان أول شخص التقيته هو الشخص الذي هزئت به قبل أيام . وفي الحقيقة كنت أهزأ به على نحو دائم . وراح يروي لي ماحدث له في اليوم السابق . قصَّ علي كيف أن شخصاً قد تعقبه منذ اللحظة التي غادر فيها منزله في الصباح ، وكيف أن شخصاً آخر هدده على الطريق ، وكيف أن شخصين آخرين حدقا إليه عند موقف الباص وراحا يتبادلان الايماءات .

نظرت إليه في صمت كما لو أني صدقت قصته ، وبدا موقفي هذا غير مألوف

له . لم يسمع مني تعليقاً أو كلمة تنم على تعاطف ، ولكن عندما همَّ بالانصراف أمسكت بطرف ردائه :

قال :

ـ إنك لا تهزأ بي اليوم . .

قلت :

ـ إن ماتقوله صحيح . أنا أيضاً أشعر بما تشعر به .

نطقت كلماتي بصوت خفيض مما أثار الدهشة في نفسه . بعد لحظة اتخذت دهشته شكل الخوف الذي بدأ يزحف الى عقله ، وشيئاً فشيئاً أحسست بهذا الخوف يزحف الى داخلي . وأدركت في تلك اللحظة أن كل الحكايات التي سمعتها منه أياماً أثّرت فيَّ إلى درجة أني فقدت الثقة بنفسي واقتربت من هاوية لا تحدها حدود .

تركني الرجل أقرر لنفسي مايجب أن أفعله لأشغل نفسي ، ولم أوفق في اتخاذ قرار كهذا .

جلست على معقدي في المكتب ، ورحت أرقب الآخرين حولي . كانوا جميعاً تقريباً بين ذاهب وآيب ، لا يجلسون على مقاعدهم . وكان الحاجب يقترب منهم مرة بعد مرة داعياً إياهم لمقابلة المدير .

وفجأة سألني الموظف الجالس الى جانبي عن تاريخ اليوم ، فلم أتذكره ، ولكني بذلت جهداً وأفلحت في تذكره وأعلمته به . ثم سألني موظف آخر عن الوقت فأعلمته به . فقال : لكن الوقت مختلف على ساعة الجدار . نظرت إلى ساعة الجدار : فعلاً كان الوقت متقدماً نصف ساعة .

ـ هل الساعة مسرعة اليوم أو . . . .

ـ لا أعرف

ـ ولكنها كانت مضبوطة قبل فترة .

ـ لماذا تريد أن تعرف الوقت ؟

ـ لا لشيء . . . في الحقيقة لا أملك الشجاعة لأن أغادر المكتب . لاأعرف السبب .

اندهشت ونظرت إليه . شعرت بأنه عبر عما كان في داخلي .

ـ ماذا ؟ هل أنت خائف ؟

ـ لا . . . لا . .

كانت نغمة صوته تدل على أنه كان يكذب .

قلت :

ـ ثمة شيء ما بالتأكيد

كان الجو كله مشحوناً ، وكان التنفس يزداد صعوبة . قال وهو يزفر :

ـ نعم ، لابد أن هناك شيئاً ما ، ولكني لا أعرفه .

في تلك الأثناء ، أقبل الحاجب علي وهو في حالة ذعر تقريباً ، فنظرت إليه نظرة متسائلة .

قال :

ـ هدد المدير أن يحسم جزءاً من راتبي .

ولم تكن حالة الفزع تلك حالة فردية وإنما كانت حالة جماعية تأثر بها كل كائن حي .

ـ هل هذا هو ماأفزعك ؟

قلت ذلك فسرت في جسمي رعشة ، وارتعد الحاجب . ووعدت بأن أساعده ، وكان صوتي أجوف . وأدركت أن الحاجب كان يهمُّ بالهروب . لقد فقد الجميع توازنهم كما فعلت أنا .

قلت للموظف القريب مني :

ـ المكتب سيغلق أبوابه باكرا اليوم .

ـ نعم ، ربما . هل تعتزم البقاء هنا ؟

ـ أوه ، لا .

ـ إذن لنذهب .

نهض مسروراً كما لو كان الذهاب رغبته الوحيدة . كان الخوف في داخلي واضحاً في وجهه أيضاً . وخرجنا ونحن نعاني من ذلك الخوف المجهول . كنت بحاجة الى شعور بالارتياح ، ولكن كلما نظرت حولي كنت أشعر أن الجميع يخاف بعضهم بعضاً . لهذا السبب أسرعنا من غير أن نجد ركناً آمناً . كان الناس جميعاً ضحايا لخوف جماعي من نوع ما ، وكانت عقولهم عاطلة وشخصياتهم منسحقة .

اقتربت من بيتي فألفيت النوافذ كلها مازالت محكمة الأغلاق ، وحتى الباب الرئيسي لم يفتح الا بعد طرقات عديدة . كانت ضلوعي تؤلمني ، وكانت اللحظات القليلة التي انتظرت فيها عند الباب طويلة رهيبة .

دخلت الى البيت وراعني أن وجه زوجتي كان يطفح بالخوف إلى درجة أن عينيها فقدتا اشراقهما . وحاولت أن أستعيد جانباً من ثقتي بنفسي فسألتها عن السبب في أن الأبواب والنوافذ كلها مغلقة .

قالت :

ـ ولكنك أغلقتها بنفسك

قلت :

ـ حسن إذن سأفتحها .

نطقت بتلك الكلمات فسرت رعدة في أوصالي ، وارتعشت شفتا زوجتي وكادت أن تمنعني من فتح النوافذ . نظرت إليها وكأني أطلب مساعدتها .

قالت

ـ أشعر أن أحداً سيقتحم بيتنا في أية لحظة ليقيدني ويفر بالأولاد .

ولم أتمكن من التعليق على نحو مقبول . كانت ثمة تعبيرات مبهمة على وجهينا . ولم استطع أن أهدىء من رُوعها ، فراحت تطيل التحديق إلي .

وأسرعت الى حجرة الأولاد لأجدهم الثلاثة يلعبون اللودو في سعادة غامرة . وكانت نافذتهم مفتوحة . وماأن رأوني حتى دعوني إلى الأنضمام إليهم .

كان من مألوف عادتي أن ألبي دعوتهم في حال عدم انشغالي ، أما الآن فلم أمِلْ إلى اللعب البتة

اقتربت من النافذة ونظرت نظرة خاطفة إلى الخارج . كانت نوافذ البيوت المجاورة كلها مغلقة . واستبد بي شعور يائس غريب ، فأغلقت النافذة بحركة آلية سريعة .

كانت زوجتي قد لحقت بي الى حجرة الأولاد . وعندما رأتني أغلق النافذة تنفست بارتياح .

نظر الأولاد إلى وجهينا مندهشين ، واحتجوا على منع النور والهواء من الدخول الى حجرتهم .

حاولت أن أشرح لهم ، وقلت إن أحداً قد يقتحم البيت ، ونظر بعضهم إلى بعض في ارتباك . وماهو إلا وقت قصير حتى رأيت الخوف يطلُّ من عيونهم أيضاً .

جاءت زوجتي بالطعام إلى الحجرة نفسها ، ولكنها لم تأكل ، ولم آكل أنا . وواصل الاولاد التحديق إلينا ، وأحياناً نظروا إلى النافذة وتبادلوا الايماءات ، ثم كفوا عن تناول الطعام .

حاولت أن أشجعهم . قلت : واصلوا اللعبة ، فليس هناك داع للخوف . ولكن ماأن قلت ذلك حتى ازداد خوفي ، ولاحظ الأولاد ذلك .

كانت زوجتي تطيل النظر إلى الباب والنوافذ كما لو أن شيئاً كان يمكن أن يدخل من خلال الشقوق . وزحف الأولاد وجلسوا بقربها ، فبدت مثل دجاجة مترقبة تحمي صغارها تحت ريشها .

ولايظهر الخوف على وجوه الأطفال في الأحوال العادية ، وشعرت أن الخوف في عيونهم لم يكن إلا انعكاساً للخوف على وجهي ووجه زوجتي .

ولاأعرف ماالذي دفع بي إلى التوجه الى طاولة الكتابة لأكتب قصة كانت أحداثها تشغلني منذ أمد بعيد . سطرت بضعة صفحات ، وقرأتها فأحسست أن كل كلمة كتبتها كانت مغموسة بالخوف . أدركت على الفور أن مؤثرات خارجية قد أطبقت على عقلي ، فمزقت الصفحات في قرف .

أمسكت برأسي وبقيت جالساً طويلاً . وحاولت الكتابة كرة أخرى ، ولكني أحسست أن القلم بين أصابعي كان يرتعش . تصبب العرق البارد على جبهتي ، وفي وقت قصير كنت أتعرق تحت أشعة الخوف المحرقة . لقد تصدعت .

كنت واثقاً الآن أن من المتعذر علي أن أكتب حول فكرة الخوف تلك ، أو ربما لم يحن الوقت للكتابة بعد ، أو ربما فات الاوان على الكتابة ولم أشعر بذلك . كنت قرأت معظم ماكتب في البلاد ، ولكني لم أقرأ عما كنت أراه في عقلي . كنت متأكداً أن أحداً لم يكتب قصة مماثلة لقصة الخوف الذي كنت أعيشه لأن كل من حاول لابد أنه سقط في ذهول مماثل لذهولي . إن قصة كهذه تظل معلقة في الهواء لايطالها أحد

أمسكت بالقلم وجلست الليل بطوله محاولاً أن أكتب . في الخارج كانت حبال الهزيمة تخنق المدينة كلها ، وفي الداخل كانت زوجتي تشد الأولاد إليها . أحسست كما لو أننا جميعاً انقلبنا الى تماثيل أو تحولنا الى رماد تحت تأثير أشعة البيئة الحارة وحرارة عقولنا . كل شخص في المدينة كان يطوف مرتبكاً فاقداً القدرة على التحكم في مخاوفه .

حزق الأرق عينيّ ، فتركت طاولة الكتابة لأستعد للذهاب الى العمل ، وما أن وقفت أمام المرآة لأحلق لحيتي حتى رأيت الشخص الذي كنت أخافه ، فدفعت بالمرآة بعيداً ، ثم اندفعت في أرجاء البيت أحطم المرايا جميعاً . ■

الصدق.. والوفاء..
في ديوان «حنين»
للشاعر السوري عبد المجيد التجار

بقلم:

عبد الوهاب قتاية

هذا مقال كتبه الاديب الكبير الاستاذ عبد الوهاب قتاية في جريدة الاتحاد الظبيانية عن الشاعر اللواء عبد المجيد التجار وديوانه "حنين".

ومجلة الثقافة التي تكبر الاستاذ قتاية أدبه الجم يسرها ان تعيد نشر هذا المقال لأهميته الادبية واعترافا بفضل كاتبه.

دلتني كثرة التجوال في أنحاء الوطن العربي، ودوام السعي الى التعارف مع الناس. وبخاصة ذوو الميول الأدبية والفنية، على ان المواهب التي تلوح لنا في دائرة الضوء، لا تمثل سوى جزء ضئيل من المواهب الكامنة في مجتمعاتنا، والبعيدة بحكم اعمالها ومسئولياتها واهتماماتها عن اضواء النشر والمحافل الثقافية وأجهزة الاعلام، وان كانت تسر في اعماقها حلما خفيا وحنينا غامضا الى يوم تنفض فيه عن كاهلها هموم عملها ومسئولياتها، وتلوذ بشاطىء السكينة والسلام الجميل، حيث تلبي نداء مواهبها. لتحقق ذاتها باطلاق طاقاتها الابداعية الكامنة.

لكن المؤسف، ان هذا الحنين الغامض، أو هذا الحلم الخفي نادرا ما يتحقق، فالأغلب في حياتنا العربية هو أن تستمر سيطرة هموم العمل والمسئوليات حتى تستغرق العمر كله.. ولا ينجو من شباكها الا قلة ممن لديهم ملكة التنظيم والمبادرة في الحياة.. مثل تلك الشخصية الفنية التي نلقاها في هذه السطور.. الشاعر الاستاذ عبد المجيد التجار.

شاعرنا من أبناء سوريا العربية، من ذلك الجيل الذي عاش مراحل التحول الكبرى في حياة وطنه، وشارك في صياغة تاريخه الحديث.

ولد عام ١٩١٦ في بلدة «دير عطية» الرابضة في حضن جبال القلمون، والتي عرفت باحتضانها لمنائر العلم والأدب وبأنها مهد كثير من المغتربين في المهاجر.. وفيها بدأ التعليم ثم اتمه في دمشق حيث تخرج في كلية الحقوق بجامعتها.

أما حياته العملية، فقد بداها معلما ابتدائيا، ثم تحول الى مجال الأمن والادارة، بعد دراسته في مدرسة مرشحي ضباط الدرك، ووصل الى رتبة لواء ومنصب محافظ دمشق، ثم محافظ السويداء، حتى أحيل على التقاعد، وعلى صدره ثلاثة عشر وساما.

وبالنظرة العابرة، ربما لا يبدو في هذه الحياة شيء متميز أو متفرد.. ولكن النفاذ الى أعماقها يكشف لنا عن تجربة غنية في خدمة الوطن والمجتمع، وعن عقل مستنير، وعن سجايا خلقية كريمة.

لقد كان لي خط الاقتراب من «أبو فاروق» وصحبته في دمشق وقتا طيبا.. ورأيت كيف يلقاه من عاصروا خدمته بالمحبة والاجلال.. ومن أطرف ما سمعت قول أحدهم في أحد الأسواق: «كانت نجومك لا تخيفنا».. مشيرا الى نجوم رتبة اللواء أيام عمله محافظا لدمشق.. والى علاقة المحبة التي ربطت بينه وبين الناس.

وروى لي أنه حين تولى منصب مدير السجون المدنية بدمشق، حرص على أن يجعلها ـ كما تصفها الأدبيات ـ مكان تهذيب واصلاح، فأسس ثلاث مدارس لتلك الفئة المنكوبة، ومكتبة وقاعة محاضرات.. وراح يأخذ بأيديهم الى طريق المعرفة والعلم والاصلاح.. مؤمنا بمقولة «فتح مدرسة معناه اغلاق سجن».. وهو يعتز اعتزازا عظيما بأن هناك لائحة ـ ما تزال تزين احدى غرف السجن ـ تتضمن أسماء الذين تخرجوا في تلك المدارس..

كذلك حدثني بعض رفاق عمره، ومنهم الأديب الكبير الاستاذ مدحت عكاش. مؤسس مجلة «الثقافة» ورئيس تحريرها، عن ذكرياتهما في الشباب الباكر ومساهمتهما في الحركة الوطنية ضد الاستعمار.. وهذا الجانب يدركه القارىء لاشعاره، النابضة بالوعي الوطني والقومي، والمفعمة بحرارة الغيرة النضالية، والمتابعة لحركة المد القومي وحياة بعض رموزه.

على ان المرحلة التي تعنينا في حياة الرجل هي مرحلة التقاعد.. التي يسميها بعض الحكماء «خير سني العمر».. والتي يقول عنها «أبو فاروق»: «التقاعد فتح أمام نافذة كانت مغلقة أثناء الخدمة، فقد أتاح لي أن أعيش مع احساسي الأصيل وأعبر عنه».

ومن حصيلة ما كتبه شاعرنا قبل التقاعد وبعده وبحفز من اصدقائه

انتقى ثلاثا وعشرين قصيدة، واصدرها في ديوان أنيق بعنوان «حنين».

اللمحة الاولى المميزة البارزة في شعر الاستاذ عبدالمجيد التجار، هي لمحة الصدق في اختيار موضوعاته وقضاياه.. فهو شاعر غير محترف، كلمته هي فيض فكره وعاطفته، ومن وحي تجاربه وعلائقه..

نحس صدقه هذا في قصيدته عن «نضال دمشق» المتلاحم والمتجاوب مع نضال مصر والجزائر والعراق وفلسطين.. في تلك الايام المجيدة من عمر الانسان العربي.. أيام الوحدة الرائدة.. اذ يقول عن نضال الفيحاء ضد الاستعمار:

«ففي كل شبر من رباها ضحية
أرى دمها ينساب تبرا وعسجدا
فما شهدت دنيا الشام تخلفا
عن الركب يوما او أقرت ترددا
فجلق من دنيا العروبة حصنها
اذا غضبت كانت جحيما على العدى»

ونحس صدقه في فرحته الغامرة وحماسته للسد العالي الذي كان من حظه حضور احتفالات وضع حجر اساسه في أسوان عام ١٩٦٠، فأنشد في نشوة:

«انا في عزة الفخار تراني
بعد طول الهوان كالنشوان
انا من أمة أعاد اليها
ناصر مجدها عظيم الشان
لقن المعتدين درسا مريرا
سوف يبقى على مدى الأزمان
هزموا في القناة شر انهزام
فليموتوا بالغيظ في أسوان»

وتتأجج حرارة صدقه حين يقلب الطرف فلا يقع الا على مشاهد التمزق والتخلف. والهوان في انحاء الوطن، فيصعد انات جريحة ويرسل صرخات غاضبة لايقاظ نخوة الرجال الذين تراخت ارادتهم واكتفوا باجترار امجاد الاجداد:

«في كل يوم نستظل بمجدهم
نبكي ونستبكي الديار طلولا
عاشوا قضاياهم فدى وبطولة
ونعيش نحن مشاهدا وفصولا
اعلت سواعدهم صروح فخارهم
فإلى متى نلقى الحياة فلولا؟»

ونحس حرارة صدقه في انشودته لنسور تشرين، ومناجاته وشكواه للرسول صلى الله عليه وسلم في مناسبة اقبال القرن الخامس عشر الهجري. وفي أساه ورفضه لغزوة اسرائيل للبنان، لكن قمة صدق مشاعره تتجلى في رائعته «المتقاعد» التي حققت شهرة واسعة، وترجمت الى اللغات الانجليزية والفرنسية واليوغسلافية بعد ان نالت استحسان المشاركين في مهرجان الشعر بيوغسلافيا.. والحق انها قصيدة جريئة تكشف مظاهر الزيف والنفاق والخلل في المجتمع، الأمر الذي تسبب في منع نشرها طوال سنى عهد الانفصال.. كما انها قصيدة جديدة في فكرتها محكمة في بنائها، نافذة البصيرة في حكمة تارة وسخرية لاذعة تارة أخرى، ومن قوله:

«تفاعل مع الايام والبس لبوسها
وحارب كرام الناس حرب تجاهل
ونافق ففي سوق النفاق مكاسب
وراوغ وعش في خدعة وتحايل
تجد في ميادين النفاق مواكبا
تزاحم فيها كل غر وهازل
فإن انت الهبت الأكف تزلفا
تعش في امان من حسود وعاذل
وان قلت بعض الحق عشت معذبا
وكم هان شهم فاضل وابن فاضل»

●

اللمحة الثانية المميزة البارزة في شعر الاستاذ التجار هى لمحة الوفاء، وقد أحسن وأصاب كبد الحقيقة الاستاذ الشاعر عبدالمعين الملوحى في تقديمه للديوان حين وصف الديوان بانه ديوان الوفاء، لان قصائده، وبخاصة قصائد الرثاء، هى فيض الوفاء للراحلين من الأهل والأصدقاء واعلام المجتمع والنضال القومي

والذين يقتربون من نفس الرجل يعرفون قوة شيمة الوفاء وأصالتها عنده.. وهى شيمة تمتزج بتلقائية العطاء عنده واستعداده الأصيل للخدمة والمساعدة..

ويتجلى وفاء شاعرنا من أولى قصائد الديوان.. التي يناجي بها مهد مولده ومرتع صباه.. بلدته «دير عطية»:

«اذا ذكرت شاقني ذكرها
وهز فؤادي وهاج الشجن
ديار تشهيت احلامها
وكل امرىء يتشهى الوطن
فيارب صنها وصن أهلها
وجنب بنيها سعير الفتن
اعود الى بلدتي طامعا
بحفنة ترب تزكى الكفن»

وما أعمق وفاءه وأحر عاطفته، اذ يبكي أعز مخلوق لديه.. أمه..

«ربيع حياة المرء أم، اذا مضت
مضت معها دنيا السعادة والنعم
هي الأم دنيا من حنان ورقة
وقلب كبير فاض بالحب والحلم
فيارب ما أحلى الحياة بقربها
ويارب كم تقسو الحياة بلا أم»

ثم تتوالى أيات الوفاء. في قصائد الديوان.. في رثاء نخبة من رجالات العروبة.. من أصدقائه ذوي الفضائل المضيئة من خلق وعلم وعمل وطني.. ومن شعراء بارزين ومناضلين وطنيين وقوميين..

والحق أن استعراض أسماء من اثاروا عواطف شاعرنا وحفزوا فنه يدلنا على نفس الرجل ورؤيته وفكره.. فكما يقال: قل لي من تصاحب، أقل لك من أنت.. يمكن أن نقول بصدق: قل لي من ترثي، أقل لك من أنت..

وشاعرنا يرثي المجاهد مصطفى سعيد الجراح الذي تعرفه «دير عطية» بنضاله ومعاناته من اضطهاد الاستعمار.. ويرثي شاعر الشام الكبير أنور العطار، مشيدا بأشعاره التي تمجد تاريخ الوطن ومفاخر الأمة.. ويرثي الطيار الشهيد في حرب تشرين غسان عبود.. ويرثي الدكتور محمود سعده ـ الذي كان وزيرا للصحة ـ مشيدا بمآثره وعلمه وأخلاقه.. ويرثي صبري العسلي منوها بماضي نضاله وإيمانه بالديموقراطية، واعلانه لقيام أول دولة للوحدة.. ويرثي العالم محمد وفا القصاب، والعالم الامام الدكتور محمد أبو اليسر عابدين.. ويرثى قائد الثورة السورية سلطان باشا الأطرش.. ممجدا جهاده.. باكيا على حال سيفه من بعده:

«وحى صارمه البتار مستمعا
اليه ابلغ من ينبيك تبيانا
تراه في غمده المحزون مكتئبا
وكان في قبضة السلطان جذلانا»

ثم يرثي شاعرنا المطران زائد، مؤكدا الوحدة الوطنية والاخاء بين ابناء الوطن من مسلمين ومسيحيين.. كما يرثي عميد الشعر الزجلي في منطقة القلمون محمد سليم دعبول مذكرا بأشعاره الوطنية والاجتماعية الجريئة.. ويتوج وفاءه وأحزانه الايجابية برثاء الزعيم «جمال منحة الأجيال»..

«يا صانع التاريخ حبك قوة
ان المحال لديك غير محال
امفجر الثورات يغمرها الهدى
كم صنتها من فتنة وضلال
فاهنأ بمثواك الأخير منعما
فالشعب نساج على المنوال
ورفاق دربك قوة وعزيمة
لا يرهبون تبدل الأحوال
لك شعلة أبد الزمان مضيئة
درب الشعوب بنورها المتلالي»

وهكذا يكون ديوان «حنين» للشاعر الاستاذ عبد المجيد التجار، هو ديوان الصدق والوفاء. وديوان تمجيد كل لمحة خير وكل عطاء من أجل الوطن والعلم والحياة..

ولئن كان شاعرنا لم يكتب شعرا وفيرا اثناء انشغاله بهموم العمل ومسئولياته، الا انه عوض ذلك، في خير سني العمر، بعد التقاعد.. وقدم لنا صورة مضيئة لنفس عربية صافية كريمة.. لم تعش لنفسها فحسب بل عاشت لوطنها وناسها.. وعبرت بشعرها عن ذلك.. فجاء ديوانها زهرة تحية، تتوج العقد السابع من عمره المديد ان شاء الله..

حلم السيد صعب

قصة : فضل عفاش

مهداة الى الدكتو بوعلام بسايح وزير الثقافة والسياحة في الجمهورية الجزائرية

كان يمشي على الرصيف ،ونفسه الحائرة لا تبعث الا بالشغب .. وكل ما في ذاكرته الملتهبة يتخبط بلا جدوى .. فتتضارب أفكاره بحلم المستقبل الوردي ..
والاشياء العفنة بذاته لا تطرح غير الخوف والالم الصعب ،وجراح كثيرة لا دواء لها الا اللون الرمادي الذي يصبح مع الغد لون الكون في حلمة هذا الحلم الصعب ..

وهو لا زال يمشي ، كانت خطواته الثقيلة تضل به الطريق .. فجأه يتعثر بحجر على الرضيف أصحاه لحظة كانت اسرع بحقيقتها من الم القدم..

تابع المسير باتجاه الحارة الغربية ،وعيناه البراقتان كانتا تتأملان كل شيء ..
التفت الى اليسار كان لا يرى غير الشغب وضجة الناس .. واي ضجة هذه ؟ قتال وصراع للحصول على رغيف الخبز ..
الزحمة في كل ركن وزاوية .. عند بائع الفول وحتى فيالحانوت .. وعلى اليمين ازدحمت عربات الخضرة والفاكهة وامتلأت الطريق بعامة الناس .
أشياء غير مألوفة لا نراها طوال ايام السنة .. والحدث الغريب يَجيء كل عام أيام الفرح كعادتها لا تطول ..

وتظل العرب عامة .. تتخبط بقراراتها .. لكنها لا تكسب في النهاية غير رائحة الخبز .. .. والبارود ..

لقد تذكر فقد جاء شهرُ رمضان شهر الخير والعطاء ..
وها هو السيد صعب يدخل الحارة الغربية ويتطلع الىالشمس بنظرة فيها غرابة . .. نعم هي ايضا تحاول الرحيل بعجلة مثلما يفعل الناس .. كلها دقائق وتراكض الناس الى مساكنهم .. فخلت الطريق من المارة حقا ، لقد رحلوا مثلما رحلت الشمس قبل قليل .
يجيء المساء يبعث مع قدومه نسمة باردة ورقيقة تخترق جسده البارد، لكنها كانت نسمة لطيفة هي بحق الطف بكثير من دخان الحرب .. ومن صوت صفارة انذار مبكرة مع المساء .
ومع مجيء المساء كان يشعرالسيد صعب بروعة النشوة .. وحده كان سلطان هذه الطريق .

لحظات ويعم الظلام .. ارجاء الكون .. وها هو صعب يصبح على مقربة من مسكنه في مقبرة المدينة .
.. وصل الى المقبرة ، فدفع ببوابتها ودخل ثم تناول من جيبه مفتاحا صغيرا .. وفتح باب غرفته .
آه يا دنيا لا شيء هنا يبعث بالشغب ، هدوء وصمت رهيب اصبحلايخيفني .. والقبور وحدها تظل واقفة بعناد . .
آه يا دنيا .. الناس تسكنك تفرح وترقص وانا يكتب علي ان اعيش هنا مع القبور .
شيء قد لا يبعث الاثارة ، فلا ضيف جديد الليلة .. الا ان الحفار ابا قاسم قد يكون غادر غرفته .
بصوت عال
يا ابا قاسم ..
يا ابا قاسم.. أأنت هنا ..
لا صوت يجيب .. لقد غادر الحفار غرفته كعادته الى مسجد المدينة .. لقد غاب الصديق .. علينا بالكتاب .. تناول من الصندوق الخشبي كتابا مهترئا كان عنوانه " الحضارة " وراح يقرأ في صفحاته .. الا ان باله كان مشغولا اعماله مترددة ونفسه حائرة .. لا زالت تلتهب كما تلتهب ذاكرته وكأنها حرارة تموز ، بل أشبه ببركان يستعد ليكسر كل القيود التي تحيط به وحوله ..
حاول ان ينام الا ان النوم كان عدوه اللدود .. فجأة طرق باب المسكن ..
صعب : من الطارق ؟
– افتح الباب انا ابو قاسم ..
نهض علىالفورْ وفتح الباب .

صعب : اهلا يا صديق .. أين كنت ؟ . .
لقد تعبت حنجرتي من الصياح اليك أبا قاسم .. لا .. لم يكن هناك داع لان تتعب حنجرتك فأنت تعلم أنني مع المساء أذهب الى مسجد المدينة ..
صعب : وما اخبار ضيوفك اليوم ..؟
أبو قاسم بسخرية يقول : لا زائر اليوم ، انهض انت واغل لنا شايا .
صعب : حقا فلكأس الشاي بصحبتك مذاق طيب وغريب .. ومع الشاي راح يتحدث الصاحبان ..
أبو قاسم :
ما هذا الكتاب .. ارى الزمان قد التهم ايضا من صفحاته ..
صعب : انه الحضارة .. فقراءته ممتعة للغاية ..
أما العروبة فلها تفاصيل كثيرة ومعان صعبة .. واسئلة ، هذا الزمان وحده قادر على الاجابة عليها .
أبو قاسم : ما بك الليلة .. وما الذي تقوله ؟ تتحدث عن الحضارة .. ثم فجأة تتكلم عن العروبة .. ما الذي يدور في ذهنك ..؟
صعب : اشياء كثيرة والاف الاسئلة ، ما اهتديت بعد لجواب على واحد منها .
ابو قاسم :وماذا تقول ؟
صعب:
اليوم مثلا ادهشني منظر الازدحام في السوق .. وتحركات الناس بفرح ابوقاسم ، وما الفرق بين اليوم .. والامس ؟ . . فالزحمة في كل وقت وفي كل مكان .
صعب :
.. قدوم شهر رمضان المبارك الا يعني لك شيئا ؟
ابو قاسم : بل يعني لي الكثير .
صعب :
الناس في رمضان يتشابهون والجميع قبل الغروب يستعدون لاحضار الخبز والحلوى ومع الغروب ستراهم جميعا متراكضين الى منازلهم .. مجتمعين على وجبة طعام .. هنا بالقرب من مرقد صلاح الدين.. وهناك في تعز وصنعاء ، في فاس والمدينة المنورة ، الجميع فرحون والكل يبحث عن الخير .
ما بالك .. ورمضان ؟
هذا الذي يجمع العالمين العربي والاسلامي في وقت واحد .. يوحدهم جميعا في وقت واحد ، فالقرارات الصعبة في حق العروبة .. والكلمات التي لم تعد مقروءة .. حكم الجيرة ومؤتمرات القمة .. عبارات كثيرة على الجدران ، وخطوط حمراء وحكام واحكام .. وزارات وحكومات .. وقيادات سياسية وصفارات الانذار .. التي كانت تجيء دوما برفقة الحريق والدخان ..
كل هذا .. كان عاجزا .. على ان يجمع الناس جميعا على وجبة طعام ، في وقت واحد ، هو اجمل من كل الاوقات .. هو اختيار واحد مبدع .. في غروب جميل بعده شروق وحياة ..
كل هذا .. كان عاجزا على ان يجعل مني سلطان الطريق ..
الجميع اجتمع .. مع الغروب بلا هدنة او قرار سياسي .. او بندقية .
أليس في هذا وحده ..
أليس في هذا .. قوة ؟
آه يا أبا قاسم ، لو كانت ايامنا كلها رمضان .. لكنا غيرنا فعلا وجه التاريخ على الاقل .
ولما كنا سمعنا بصبرا وشاتيلا ..ولا حتى عرفنا من اين جاء صهيون ..
المال عندنا والرجال منا . . والفكر من صنعنا .. وواحدة في تدمر تظل شاهدا لكل ماض عظيم .. والهرم وحده يظل ماضينا الشامخ ..
ووحده اليوم .. الورق الاخضر يتحكم في مصيرنا .. يشرد اولادنا . . يقتل اخواننا .. ويلهب الحريق في ارضنا .. فيضيع كل امالنا واحلامنا ..
آه يا ابا قاسم .. من عالم مجنون .. يقتل فينا الحلم ،ويدفن كل حقيقة .
ابو قاسم : انا ارى بالك مشغولا . . ارح نفسك .. وقم نام
صعب : اي نوم .. هذا ؟ الا يكفنا نوم العصور ؟
ابو قاسم : لقد دب النعاس في عيني . . انا ذاهب للنوم .
صعب : بأمان الله .

وهكذا تفرق الصاحبان وناما نوما عميقا .. وجاء صباح وراح مساء وصاحبنا صعب لا زال يحس بشعور غريب ،كان احساسه يكبر .. بأمل مستقبل امته العربية ..
فللعروبة معان كثيرة .. كان يود ان يراها واقعا وحقيقة .

ومع مجيء ليلة القدر .. بعد ان مرت ايام رمضان سريعة كالطيف .. استعد صعب وابو قاسم لقضاء تلك الليلة في مسجد المدينة الكبير .
في المسجد قال صعب لأبي قاسم : اتمنى



ان لا يغلبني النعاس هذه الليلة فلعلي اری ليلة القدر .
أبو قاسم : لو رأيتها ماذا تطلب من ربك .؟
صعب : لو حصل .. سأتمنى امنية الجميع ، امنية ملايين العرب .. أمنية الصغار والكبار
في مدارسهم .. والعمال في مصانعهم ..
امنية جدتي بعد ان فات شتاء عمرها ...
ابو قاسم : ادركت تماما ما هي امنيتك انها الجنة ..
صعب : بل انها الجنة التي فوق الارض .. يوم ستتحقق .. ستصير الارض جنة .
ابو قاسم : والله لم اعد افهم كلامك .
صعب عليك اذن بقراءة القرآن الكريم وانا سأذهب .. واجلس في زاوية المسجد ، وادعو ربي ان يحقق لي امنيتي .
في زاوية المسجد .. جلس صعب يدعو ربه ان يحقق له أمنية .. بدأت الساعة تتقدم من منتصف الليل .. راحت اللحظات تتسارع وتتسارع وغلب النوم (صعب) فدب النعاس في عينيه .
وبعد لحظات . . فارق صعب الجميع واستلقى بجسده النحيل فوق سجادة المسجد ونام نوما عميقا لم يعرفه من قبل . .
وفي نومه تراءى له الحلم الوردي ، وفي الحلم ..
فجأة تقوم الدنيا وتقعد ..
ثورة ورفض .. لهب ثم حريق ..
ثم رماد ..
عواصف .. تأتي من بعيد تجرف كل شيء ولا ترحم ..
بركان يقوم .. يبعث الصوت .. .. ويخيف ..
وزلزال .. يهب ليخنق كل المتآمرين والخونة الدجاليين ..
فجأة تقوم دولة قوية في العالم .. تغير مجرى التاريخ .. فتبعث للانسان والانسانية حضارة جديدة .. انها " الدولة العربية الواحدة " ..
ومع قيام هذه الدولة يقوم مؤتمرها الاول الذي قرر ما يلي :

١ – ازالة الحدود .
٢ – انشاء الجيش العربي الواحد .
٣ – القضاء على اسرائيل .. والرجل المخرب الذي يدعى (صهيون)
٤ – استعادة كافة الاراضي العربية المغتصبة .
٥ – انشاء خزانة مالية تقوم في مكة المكرمة تسمى " خزانة مال الدولة العربية الواحدة " على ان تسحب كافة الاموال العربية المجمدة في البنوك خارج حدود الدولة العربية الواحدة وتوضع في هذه الخزانة . وبعد ذلك يتم توزيع المال حسب الحاجة والاصول وحسب مقتضيات الظروف مع مراعاة ضرورة التنمية الاقتصادية والثقافية والاجتماعية
٦ – يكون علم الدولة العربية بالمواصفات التالية :
الارضية باللون الابيض وفي الوسط حمامة بيضاء وقيد منكسر وسنبلة ذهبية .
٧ – اما النشيد الوطني للدولة العربية الواحدة فكان :
بلاد العرب اوطاني
من الشام لبغدان
٨ – يتولى السيد صعب رئاسة الدولة العربية الواحدة .. وبعد تولي صعب مهماته يصدر القرارات التالية :
آ – الغاء النظم السياسية في البلدان العربية واعتماد نظام الحكم المحلي بواسطة الديمقراطية التمثيلية " المجالس الشعبية " .
ب – يكون مركز الحكومة المركزية بجوار ضريح البطل العربي صلاح الدين الايوبي .
ج – اقامة مجلس الشورى ويمثل هذا المجلس السلطة التشريعية على ان يكون مركزه بجوار ضريح البطل العربي عبد القادر الجزائري .
د – اقامة مجلس الدولة ويكون فيه التمثيل متساو من قبل الدولة العربية ولا تتم اصدار التشريعات الا بموافقة المجلسين ويقوم مجلس الدولة بجوار ضريح البطل جمال عبد الناصر .
و – يراعى في تشكيل السلطة التنفيذية التوزيع السكاني والجغرافي على ان

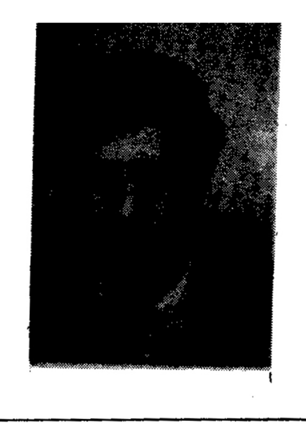
تكون مسؤولة امام المجلسين .
هـ - السلطة القضائية العليافي الدولة العربية تقوم بانشاء مجلس قضائي اعلى حسب الكفاءة ويكون هذا مستقلا عن السلطتين المذكورتين ويرأس مجلس القضاء الاعلى .. رئيس الدولة " السيد صعب " ويقام هذا المجلس بجوار ضريح البطل العربي خالد بن الوليد .
ز - طريقة الحكم - يتم اختيار نظام حكم يتأقلم مع مقتضيات الدولة الجديدة بحيث يتم اخذ المبادئ المتناسبة مع وضعها من الانظمة السياسية الراقية القائمة في العالم .
ر - تصدر السلطة القضائية برئاسة السيد صعب .. قرارها باعدام الخونة وكل المتآمرين والدجالين الذين كانوا يرتشون من الامبريالية والرجل الذي يدعى " صهيون " قبل قيام الدولة العربية الواحدة ..
وفي الحلم ..
فجأة .. يصير الحريق .. رمادا ..
تثور الارض من جديد .. ومن بعيد يأتي شبح ضخم يحاول خنق السيد صعب في حلمه ، بصراخ .. بألم يصحو السيد صعب من حلمه ..
من هذا الحلم الوردي الذي صارفي آخره كابوسا مخيفا .. جعل نبضات قلبه تتراكض كما تفعل العامة في بيروت يوم تسمع مع طلوع كل فجر صفارات الانذار وزشقات الرصاص .
بألم استيقظ السيد صعب كما يستيقظ الفعراقي في بغداد وكربلاء على صوت مدفع او رشاش .
كان يود ان ينهض ..
كما نهضت فيتنام .. كما قامت الصين واليابان ..
كان يود ان يصحو ..
كالدولة العربية التي قامت في حلمه الصعب

صعب : اه .. اه .. لقد ادركتني ليلة القدر وها هو الفجر يظهر بألوانه القزحية وتجمعت قطرات الندى على الاوراق ومن هناك ستشرق الشمس ،ستعلن الحياة من جديد .
لكن حلم صعب .. يموت ولا يصحو مرة اخرى كما ستموت قطرات الندى على الوريقات..

ستحرقها اشعة الشمس كما يفعل الكابوس المخيف في حلم وردي هوبحد ذاته اجمل من ضحكات الصغار .
ومن جديد ..
سيأتي النهار بالضوضاء والشغب ..
سيأتي بمؤتمرات القمة .. بالخطوط الحمراء بشعارات ملأت الجدران والحارات تظل واقفة بعناد مقروءة من قبل الجميع
حرب حزيران
ايلول الاسود
حرب الخليج
مدرسة بحر البقر
مذابح دير ياسين
كفر قاسم
صبرا وشاتيلا

ويظل العرب يتخبطون بقراراتهم لكنهم لا يكسبوا في النهاية غير رائحة الخبز والبارود .
الزمن وحده قادر على ان يجيب على اسئلة كثيرة كانت تدور في خاطر صعب ..
نحن العرب عامة نزداد ضعفا .. لكننا جميعا متفقون في حب ورقة واحدة .. هي ورقة الحظ ..
اما صعب فقد انتظر ان يرى ليلة القدر فغلبه النعاس ونام كما ينام الجميع بينما الاشياء تدركهم ..
لقد ادركته ليلة القدر ..
صعب .. وهو في طريق العودة الى مسكنه ، في المقبرة قال :
ليلة القدر هذه المباركة علمتني ان اكون ..
فالى المقبرة اعود ..
الى المقبرة اعود ..
آه ياعالما مجنونا ..
يسلبني حلما بالامس كان يعيش
آه يا عالما جانيا
لو يرفع رأس الانسان ..

وتبقى العروبة تفاصيل كثيرة واسئلة ، هذا الزمان وحده قادر على الاجابة عليها .. فمتى سنرى جميعا حلم صعب .. هذا الحلم الصعب ..
متى ستأتي ليلة القدر .. ؟ بالوحدة العربية ؟
عندها سنقول ..
لقد عادت فلسطين ..



السؤال الذي حير المدينة

قصة: العيد بن عروس

العيد بن عرس:

كاتب جزائري عبرت كتاباته عن مدى التزامه العميق بالادب العربي وفنونه .

له عدة مجموعات قصصية منها " أنا والشمس " " زمن الهجير " " السؤال الذي حير المدينة " .

ويعتبر العيد بن عرس من أبناء الريف الذين أثرت فيهم حياة البادية بكل ما تحمله من خلق وفضائل ، فلهذا تعتبر شخوص قصصه الرائعة وابطالها أناسا محرومين ومعذبين ذاقوا ويلات الاستعمار .. وعرفوا كيف يكون لهم النصر ..

" التحرير "

هذا المساء، شاع الخبر، في مدينته الصغيرة، تحرك الناس داخل مدينته، خاطبوا بعضهم بشتى الطرق...

... انطلقت الشاحنة المحملة بقطع الأثاث ولوازم أي بيت متوسط الحال باتجاه الشمال الحلم، فكانت تأكل الطريق تاركة رواءها شجيرات الشيح القصيرة التي أضافت الى عبق الأرض في هذا الوقت الباكر رائحة لها نكهة خاصة تعرف بها مناطق الاستبس...

... كانت المدينة نائمة مثل طفل رضيع...

كانت تحلم بالرقي والازدهار وأشياء أخرى تأتي في حينها...

... كانت باختصار شديد بريئة مثل طفل رضيع...

هي لوحة سريالية لها عالم خاص بلاشك، وقد يتهافت الكثير على التلذذ بفك رموزها أن كانوا من عشاق فك الرموز!

... هذا الصباح حملت الشاحنة المحملة بقطع الأثاث ولوازم أي بيت متوسط الحال الشوق والحب والحزن والأمل.. وعلى الرغم من أن المودعين لها كانوا قلة هم:

حارس المدينة وكناسها الوحيد وبعض المسافرين الذين أصفرت وجوههم ودخلت وجناتهم من عناء السهر، فقد ودعت المدينة بالدمع والابتسام!

... مالت الشاحنة يمنة ويسرة تتبع خيط الطريق القائد الذي أجبرها بلا قوة على اللهث وراءه لكنها كانت تقاوم بصبر وعناء... ماذا قال الناس مساء أمس؟

قال الحاكم الأول كلاما...

قال سكان (الحي الشمالي) كلاما

قالت عرافة المدينة كلاما..

قال الشباب في (الكورس) وهم يحتسون بيرة الفروج كلاما..
قالت فتيات (لاسيتس) كلاما..

والغريب أنه بعد هذا كله وتحت صمت المدينة البريئة لم يع أحد مايقول في ذلك المساء! لكن هناك من بين الناس من توصل الى أن الشاحنة ستودع زمنا قائما بذاته كبرج ايفل في باريس! لقد عاش موجه الشاحنة هذا الزمن بما فيه وما عليه...

ذاق طعم المدينة، أحب بسطاءها ونام بطريقتها الصبيانية... واجه أشباحها الى أن قتلته ثم أحيته كان يردد هامسا كلما ورد ذكرها من أحد:

ألم تدر؟

رحلة عمر طويلة لا ينساها انسان مثلي وخاصة أن مدينتي غريبة وغربتها لا تجعلني غريبا، بالعكس أحس دائما بالاقتراب من نفوس أهلها أكثر كلما كانت هي كذلك...

تراب مدينتي يا سيدي لونه خاص... ريح مدينتي لونها خاص ورائحتها خاصة، أبنيتها غير المنتظمة المنتشرة في الأودية وعلى المسطحات وفوق الروابي ذات أشكال خاصة،

ومن أبنيتها الترابية أخذت عدة حكم:

جدرانها تبرد في الصيف، وتسخن في الشتاء، هذا من حنان تربة مدينتي كما يقول أيضا أهل مدينتي...

كناسها الوحيد له عادات وتقاليد خاصة...

أس.. أس... ويحاول «السعيد الكناس» تجاهل أصوات كوكبه من الأولاد وهم يهتفون منتشين بالحرفين الأولين من أسمه... أسْ.. أسْ.. يضغط بالمكنسة على الأرض، بسرعة لا تعد يقلبها على كتفه وينطلق كالسهم وراءهم ويده تقبض على مقدمة هراوة المكنسة، ويغيب بسرعة، أسْ.. أسْ...

وعرافة مدينتي؟!

هي تتصف بطريقتها الخاصة في أداء عملها، فهي لا تريك مستقبلك الا بعد أن تشرب عدة زجاجات من عطر الزواي!

عمل رباني؟!

حيرت الكثير.. أفرحت الكثير وأبكت الكثير، رغم ذلك هي محل أعجاب السيدات المتخاصمات مع أزواجهن بالدرجة الأولى ثم مع العوانس بالدرجة الثانية...

هكذا جاءت صور المدينة الصغيرة متعاقبة في ذاكرته، فكان يقف بين الفينة والأخرى عند كل لون من ألوان هذه اللوحة المتداخلة التي لا تصنف ولا توضع في تيار فني واحد بكل سهولة.. هكذا ظل يعيش للسؤال الذي يأتي من تلك المدينة!

يردد الصدى سؤال المدينة الحائر فيسمعه الناس أكثر.. وسرعان ما ينتشر في الربوع وعلى أمواج متقطعة...

هنا تفر أشجار الصنوبر الى الخلف على جانبي الطريق الا سفلتي نافرة من الشاحنة اللاهثة، ويبقى داخل صمته الى اعلان آخر...

بداله يوم دخل مدينتة هذه لأول مرة بأنها هي العالم الذي يتكلم عنه الراديو، مع أنه عرف منها خاصة ساحة السوق فكان يهتدي اليها بواسطة أكوام فضلات الحيوانات المنتشرة على أطراف هذه السوق ثم بعدها الأزقة الضيقة وللعربات المثقلة وبعض الباعة المتجولين الذين كان يكتشفهم كل يوم...

شخص واحد غريب ارتسمت في ذهنه صورته عندما رآه لأول مرة! يا، اه، ويصيح الرجل ذو الشوارب الطويلة في عرض الشارع الوحيد للمدينة وهو يستقيم محاولا أن يمدد عنقه أكثر الى فوق، ياشلاغم الطيارة!

يحاول الرجل تجاهل كوكبة الأولاد وهم يهتفون منتشين باسمه الذي ملأ المدينة

شلاغم الطيارة!

في الأول يصمت، في الثاني ينطلق كالسهم وراءهم وسرعان مايتبددون...

— يحملق جيدا في وجهه الى أن يحمر خجلا، ويعدل شارباه، يا اه، وينطلق للمرة الثانية!

ياشلاغم الطيارة!

من أي تيار أنت؟

هنا يجب يا سيدي أن تحدد موقفك من كل الناس، هويتك معروفة منذ دخولك المدينة فلا تتعب نفسك أنت فلان بن فلان، كنت كذا والآن أنت كذا، أياك أن ترتكب معصية فالأمر ليس هنا، وأياك أن تتعدى الحدود المتعارف عليها مدنيا، فبكل سهولة ستشاع القلاقل في مدينتك الصغيرة... فالذين يغضبون منك كثيرون لأنك...! أياك أن تنسى...

... التفت الى الخلف ملقيا نظرة على الأثاث ولوازم البيت من خلال قطعة الزجاج المربعة المخصصة لرؤية هيكل الشاحنة من

الخلف، فشدت انتباهه آكثر هذه المرة الحصيرة الكبيرة.. اشتراها أبوه وهو لا يزال صغيرا وزين بها (دار الضياف).. كانت رائحة الحلفاء الجديدة تنتشر داخل (دار الضياف)!

وكانت من الفراش العزيز الذي ظل لمدة طويلة مخصصا للضيوف ومع مرور الزمن بدأت رائحة الحلفاء تختفي، وبدأت أطراف الحصيرة تتآكل، وهاهي تتذكر ولها ما تتذكر لأنها بدون مبالغة عرفت الكثير من شتى أنواع البشر، أما كيف بقيت الى هذا العهد فذلك موضوع آخر!

هناك أيضا كوب وصحن لهما قصة داخل هذا الأثاث، فقد ظلت الأم تذكره بيوم مولده كلما رآيا الكوب الحديدي المستعمل عند أحد جنود جيش الألمان في الحرب الكونية الثانية والصحن الحديدي!

... ذهب ببصره مخترقا الزجاج الأمامي عبر شبح الجبال المحملة بأشجار الصنوبر التي بدأت تظهر الآن، وبدأت حبيبات الظلام تذوب أمام حبيبات النور الابيض...

باباي! هو بطل المدينة وفارسها الأسود عند الأطفال، هو الذي يقود الغارات ضد الخضارين واصحاب الطاولات المتخصصين في بيع اللغب وأقراص الياسمين الدهنية التي تتزين بها نساء الريف...

لعل أهم ما يسهل على (باباي) وأصحابه المهمة العجوز! العجوز التي قضت أيام عمرها في بيع العقاقير المتنوعة والأعشاب اليابسة حتى سرت شهرتها بين العجائز والشباب الذين يحسون بعجز في... رغم أنها جسورة الى حدما.. كانوا يريذون منها أخد عرق السوس وأكياس دخان الشعرة فيبيعونها أو يدخنونها تحت جدار مقبرة المدينة مكان لعب (فاتش) و(بيل) على شرط أن يأخد (باباي) النصيب الأكثر!

يتم هذا بعد الطواف بين صناديق الخضارين حيث تكون رائحة بعض الفواكه قد انتشرت بعد، وبقاياها الفاسدة بدأت تتجمع وقد يختارون منها مايشاؤون اذا لم يحصلوا على مايملاء العيون، شد.. شد.. وتتهاطل العصي على أحدهم بعد أن تكتشف حميقته من طرف متسوق ما.. لكن؟!

... اقتحمته العاصمة البيضاء بعد أن اقتحمت الشاحنة فج الأربعاء المطل عليها، فتذكر بسرعة أشياء كثيرة ونسي أشياء كثيرة...

اعتدلت الشاحنة المحملة بقطع الأثاث ولوازم أي بيت متوسط الحال في سيرها وتحكمت في توازنها بعد أن دخلت أجواء الشمال الحلم. فقللت من سرعتها أكثر..

ديار النخيل

شعر: خليل خلايلي / الباحة

طالَ شوقي الى ديار النخيلِ فاستعدوا يا رفقتي للرحيل
آن أن نهجر الشآم وأهليه لأهل على الحجون نزول
أسرجوا كلَّ مهرةٍ تتهادى تسبق الريح في الطريق الطويل
من بنات الصحراء ترتع كِبْراً وتسلي محزوننا بالصهيل
زانها كالمهاةِ خدٌّ أسيلٌ وبياض الجبين والتحجيل
لا أحب الجناح يهدر في الجو مخيفاً كماردٍ أو غول
إن عيني تشتاق رؤية أرضي حرّة كالضياءِ عند الأصيل
وفؤاد الكئيبِ يطفح بشرا في مهاد القرآنِ والتنزيل

★ ★ ★

يا رسول الأنام جئتك أرجو في حِماكَ الطهور بعضَ مقيل
ضاق بي الرحب يا حبيبي فَاشفعْ لفؤادٍ معذبٍ مبتول
لا تلمني اذا بكيت من الوجد فوجدي من كل سامٍ نبيل
ان بي للحجاز شوقاً دفيناً ولعطرِ التكبير والتهليل
بوركتْ تلكُمُ الديارُ وروّى تربَها السمحَ كلُّ غيثٍ هطول
دوحة تنبت المعاليَ والعزّ وتهوىٰ صعوبةَ المستحيل
شاخ من حولها الزمان وظلّت جمرة الحق والتراثِ الأصيل
•هكذا شاءها الالٰه وجلّت حكمةُ الله في ديارِ النخيل

نيران على القمم

سيرة ذاتية الحلقة ٣٤

من خلال الصراع اثناء العهد الجديد

سعيد ابو الحسن

وتسارعت الاحداث ، فالاجتماع (العائلي) الذي حدثني عنه سلطان ما يزال قائما وهو يطول ويطول والايام تمر وموعد الترشيح للانتخابات يقترب .وكانت اخبار الاجتماع العائلي تتسرب الى الاوساط الشعبية وبعضها كان يسرب عمدا ، اما لجس النبض او لتثبيط العزائم – سمعنا – مثلا – ولم نصدق في بادىء الامر – ان من جملة ، ماقيل في الاجتماع :

(هذه اول انتخابات تجري بعد الجلاء واول انتخابات تجرى من قبل الشعب مباشرة : لهذا كانت هذه الانتخابات ذات أهمية قصوى . فعلينا ، نحن العائلة ، ان نثبت حقوقنا التاريخية المكتسبة في تمثيل الجبل خارج الجبل : قديما كانت الدول لا تعتمد سوانا لبحث شؤون الجبل ومستقبله . وحين كانت تتجاوزنا الى الشعب كنا نحاربها بالشعب نفسه الذي قفزت من فوقنا لتتصل به . والان علينا ان نحول هذه الانتخابات تقليدا تجبر الحكومات الوطنية على التقيد به : نحن النواب لا غيرنا . ولن نتساهل لأن الوزارات تشكل من النواب . ونحن لنا مقعد وزاري دائم . فلا بد ان نكون نوابا للحصول عليه . ولو صار غيرنا نوابا ، لأمكن ان يصبحوا – بالتالي – وزراء ، وهذا ما لا نقبل به ابدا ".

ولكن الاحداث والتصرفات التي ظهرت للملأ بعد انتهاء الاجتماع دلت على وجود هذه العقلية الابوية اوالبطريركية . فيوم انفض الاجتماع ، وبعيد الغروب جاءني الصديق طرودي عامر (قائمقام شهبة انذاك والرفيق كرم الحناوي وبعد الترحيب بهما قال طرودي :

– أخي سعيد ، ارجو الا يسوءك ما جئنا نبلغك اياه .فأنت تعرف انني اخوك وانني

اريد لك كل خير . واقصى اماني ان ارى امثالك يمثلون هذا الجبل في مجلس النواب . ولكن يظهر ان ذلك سابق لأوانه - والظروف المحلية لا تسمح بحدوثه ، لقد جئت والاخ ابو اسماعيل (كنية كرم الحناوي) لنبلغك بكل أسف انك يجب ان تمتنع عن ترشيح نفسك للنيابة عن قضاء صلخد . فالمرشح سيكون علي شقيق سلطان ولن يسمح لاحد غيره بترشيح نفسه والذي كلفنا تبليغك هو سلطان باشا بالذات ناطقا باسم العائلة كلها ، وسيبلغ الاستاذ جميل ابو عسلي ، ومحمد باشا عز الدين القرار ذاته .

وأضاف كرم الحناوي ، بعض الاسباب التي اقنعوه بها مثل : تعرف أن اول مجلس بعد الجلاء سيكون فيه صدام بين مصالح المناطق المختلفة وان الباشا حريص على ان يكون ممثلوا الجبل فيهذا الصدام من نوعية خاصة ، زعماء يهددون بالقوة ،لا متعلمين يتسلحون بالفكر والمنطق والمبادىء العامة ، فهذه لم يحن دورها ولن تقنع احدا ولن تنتزع حقا من أحد ، والجماعة لن يتخلوا عن زعامتهم بالسهولة التي تتصور .

كانت كل كلمة يقولها الرسولان الكريمان تنغرس في دمي واعصابي وتنبت ثورة على الواقع الذي نعيشه ولم يشأ " الرفيق " ابو اسماعيل الا ان يشير الى غضب الباشا الذي لا يزيد عليه من مقال لي ظهر في تلك الايام بعنوان " ايها النازلون في فندق فيلادلفيا والنورماندي لا تنسوا البؤساء في سكنة ابو كبير ووطي المصيطبة (كان المقال يخاطب الذين ينزلون في هذين الفندقين الفخمين في القدس وبيروت حين يقومون بعقد صفقات معلومة ، وينسون الاف العائلات البائسة ، التيهجرت الجبل بعدالثورة ، وبعد ان فقدت كل ما تملك فأقامت في أكواخ الصفيح فيمحلة تدعى (سكنة ابو كبير في يافا ومحلة اخرى تدعى وطي المصيطبة في بيروت . وقال السيد كرم ان الباشا لا يريد ان يشوه اسم العائلة ، وانتكن الوقائع صحيحة وهو ذاته ضدها" وكان جوابي هو التالي :

" يؤسفني ان يختاركما الباشا أنتما بالذات لأبلاغي هذه القرارات الخطيرة . يؤسفني يا اخي طرودي ، أن تقبل التكليف وانت أعرف الناس بي وبمنطلقاتي . . وتطلعاتي ..ولأنك محسوب على جيلنا ، على الرغم من كونك من اسرة لها عنعناتها هي ايضا . اما انت ، يا اخي ابا اسماعيل فلا اجد مبررا على الاطلاق لقبولك التكليف وانت مدير داخلية فرع العصبة ، وانت مشارك في كل عمل قمنا به حتى الان ، وكل بيان اذيع باسمنا يتضمن افكارنا وطموحاتنا ، وانياستنتج من قبولك بان تكون رسولا من خصومنا الينا أنك لم تعد متضامنا معنا . وان هذا سيؤدي الى انقسام العصبيين . ولكن .. الى جانب أسفي فأنا اشكر لكما ما قمتما به . لقد كنا من زمان نبحث عن قميص عثمان . وها انتما تحملان الي والى الشعب كله - قميص عثمان داميا ناطقا بالجريمة . اما جوابي فهو ، اني كنت افهم لو انذرني الباشا بعدم النجاح في الانتخابات ، فهذا معقول ، ولم اقل اني استطيع ان افوز في المعركة ، والحكومة في الجبل كلها من العائلة ،

والعشائرية ما تزال طاغية ، كنت أفهم هذا ، ولكني لا أفهم ولا اقبل في حال من الاحوال ان ينذرني بعدم ترشيح نفسي. اذ يقول هذا ، يعتدي على حقي كمواطن، وهذا الحق مقدس وانا متمسك به حتى الموت ، لن اقبل أن اكون اول مواطن مثقف يجبن امام التهديد ويتنازل عن حقه في ممارسة حقوق المواطن كاملة ،

- هنا قال الرسولان : " لكن لو قدمت ترشيحك فلن يقبل ".

واجبت على الفور : " انني اتمنى ذلك ، ولو حدث لكانت بداية النهاية للماضي العفن كله ، كل حركة ثورية تتطلب وقودا وحبذا لو كان لنا شرف ان نؤدي هذا الدور ..

وانصرف الرسولان ، وذهبت الى صلخد - في اليوم التالي، فقدمت طلبي ترشيحي للقائمقام السيد صياح الاطرش ، فأخذ الطلب وقال لي : سنبلغك النتيجة بعد خمسة ايام ، فقلت له ان الايام الخمسة هي الحد الاقصى، فحبذا لو اختصرناها قليلا ، فقال : أنا فاهم القانون هكذا ، سأبلغك بعد خمسة ايام اي يوم كذا ، فأطلعت الرفاق في صلخد على ما جرى وطلبت اليهم ان يكونوا على اهبة الاستعداد لكل طارئ . اذ يظهر ان الجماعة لا ينوون خيرا . وذهبت الى قريتي عرمان حيث اتصلت بخالي هزاع المتني واخي منصور وسائر اهل القرية ، فقال لي خالي انه سيرافقني الى صلخد لمقابلة القائمقام وتسلم الجواب منه لعله يذكره برفقة السلاح ايام الثورة .

وفي اليوم المحدد ذهبت مع خالي الى صلخد ودخلنا مكتب القائمقام ، وبعد السلام بادرنا هو بالقول : ان طلبي الترشيح مرفوض لانني اعمل محاميا في السويداء ،

وبهذا لا اكون مقيما في قضاء صلخد ، وبالتالي ، لا يحق لي ان ارشح نفسي للنيابة عن هذا القضاء ، فقلت له :

أريد ان استشهد بحالات مماثلة لحالتي ، فانتم الاطارشة تعرفون محامين مشهورين في دمشق ، احدهما الاستاذ رزق الله انطاكي ، والثاني الاستاذ محمد الجيرودي فالاستاذ انطاكي ذو مكتب معروف في دمشق، وهو وكيلكم في الكثير من قضاياكم . وها هو ذا قد قبل مرشحا عن حلب موطنه الاساسي . وهذا اسمه في الجريدة وكذلك الاستاذ الجيرودي مكتبه في دمشق وقد رشح نفسه عن جيرود موطنه الاصلي . وقد قبل ترشيحه ، وهذا هو اسمه في الجريدة ، ايضا . وموقفي انا اقوى من موقف كليهما فأنا امارس عملي اسبوعيا امام محكمة صلح صلخد . وامامنا هناك مقابل مكتبك هذا مكتب فرعي عليه لافتة تحمل اسمي وتستطيع ان تقرأها من هنا ، فما قولك ؟

فأجاب : " لقد قلت كل ما علي ان اقوله فطلبك مرفوض وامامك الاعتراض حسب القانون .

هنا تدخل خالي في عنف وقال : " ما هذا التصرف ؟ هل اعتقدتم اننا عبيدكم في هذا البلد ؟ ومتى كنا نقبل بمثل هذا ؟

لم يجب القائمقام ، اما انا فقلت : حسنا سوف نرى من له في هذا القضاء اكثر من الاخر . وسنقوم باحصاء الشهداء شهداء الثورات المتعاقبة ، قبل الاحياء، وعند

ذلك سترى ان ما لكم هنا لا يساوي شيئا بالنسبة الى مالنا نحن ".

خرجت من عند القائمقام وسألت عن القاضي هل هو في المحكمة او في الغرفة التي يسكنها حينما يكون في صلخد . والقاضي كان السيد فوزي الاطرش ،للقارئ الكريم ان يتصور موقفي الحرج :
فالقائمقام الرافض صياح الاطرش وقاضي الصلح الذي سيقدم اليه الاعتراض فوزي الاطرش والمرشح الذي احارب من اجله ولأزاح عن طريقه علي الاطرش ، والامر الناهي الذي يوجه كل شيء هو سلطان الاطرش . والمحافظ الذي يدير الامور كلها من مركز السلطة والدهاء هو حسن الاطرش . كيف يتصرف مواطن في مثل هذا الوضع ؟

كنت اعرف قبل ان اتوجه لزيارة القاضي - بعد ان عرفت انه في غرفة سكنه -ان الوضع متأزم كثيرا في السويداء . فاذا وجدوا لي في صلخد سببا واهيا ليتذرعوا به لعدم قبول ترشيحي فما هو السبب الذي سيجدونه لرفض ترشيح جميل ابو عسلي ؟ فهو من السويداء ومقيم فيها وان يكن يذهب الى شهبة حيث كان يعمل قاضينا ويعود بعد الدوام ليبيت في منزله في السويداء

والوضع متأزم ايضا في شهبة حيث تذرعوا لرفض ترشيح محمد عز الدين بالسبب ذاته وهو انه مقيم في السويداء ولا يقبل ترشيحه عن قضاء شهبة موطنه الاصلي ، (آه لو قرؤوا ما كتبه القادة الفرنسيون عن الرعب الذي كان يخيم على جيوشهم الجرارة كل ليلة خوفا من هجوم محمد عز الدين عليهم) .

حين دققت الباب على فوزي الاطرش كانت ترتسم على وجهي انفعالات تنبيء بشر مستطير . لهذا رأيته يحاول ان يهدئ من روعي ، وقال :
" تقدم باعتراضك وارجو ان يلهمنا الله الصواب ، ولكني قلت له : اسمع ، يا سيدي القاضي ، انا لم اجيء لأسألك العدالة والتقيد بالقانون ، فأنت تعرف ان العدالة الى جانبي والقانون كله معي . ولكني جئت اخبرك بحقيقة الوضع .
ان اقاربك جائرون ، وسيضغطون عليك كما ضغطوا على غيرك ، فهم ينفذون قرارات المجلس العائلي ، وهذا ، عندهم فوق الوطن ، والحق ، والعدالة ، والقانون ، ولذلك جئت اسألك ان تغدو الى المحكمة مبكرا وان يكون اعتراضي مقبولا وترشيحي مقررا يحكم منك غدا عند تمام الساعة التاسعة والا ، فصدقني انك لن تنزل من المحكمة سالما .

- يا استاذ ، قال ، انت المحامي الاديب تتكلم بهذه اللهجة ؟

- " نعم يا سيدي القاضي ، اجبت ان الطغيان العشائري الموروث من عهود سابقة مظلمة ، ولا يمكن ان يقابل بالادب والحقوق والشعب مكون من الحقوقيين مثلما هو مكون من الفلاحين والعمال وسائر المواطنين . وانت تدري كيف يكون الشعب عندما يتحرك . فنصيحة لك الا تتردد وان تنفذ ما قلته لك

- توكلنا على الله .

- الى اللقاء غدا صباحا ، يا سيدي القاضي ، وكلمة اخيرة اريد ان اقولها لك قبل انصرافي ، لا تحاول ان تغادر

المدينة فقد حسبنا حسابا لكل الاحتمالات
غادرت القاضي الى حيث كان ينتظرني الرفاق ، وكانت المدينة كلها في غليان : الاجتماعات تعقد في جميع الاحياء والهمس يدور في كل مكان . بعضهم يترقب وصول الاخبار من السويداء، واكثرهم ينتظر ان تبدأ الحوادث هناك لقد علمتنا التجارب ان نهتم بالنواة ، بالطليعة ، نواة صلبة يتماسك حولها الشعب كله . طليعة قوية منظمة ملتزمة ، مصممة ، حاسبة حساب اسوأ الاحتمالات ، والجماهير تسير وراءها حتى الموت .
لم يعرف اكثرنا النوم تلك الليلة . لقد وضعنا مخططا كاملا لعملية الغد ، حددنا لكل مناضل مكانه ، وسمينا المسؤول عن كل جزء من العملية : هناك ثلاث دوائر يجب ان نسيطر عليها سيطرة كاملة : قيادة فصيل الدرك، دائرة القائمقام ، المحكمة ، اما الجيش الذي كانت سرية منه في القلعة بقيادة الضابط ابراهيم الاطرش - ايضا ايضا . فلم يكن من المحتمل تدخله لأنه يتلقى اوامره من القيادة العامة في دمشق بطريق السويداء اي انه لم يكن من المحتمل ان يتصرف تصرفا تلقائيا . وان حاول ، فعند ذاك سنلجأ الى استثارة الشعب الرديف ، الشعب كله ، خارج صفوف الطليعة العصبية الملتزمة ، القوة الضاربة هم شبان العصبة ، حرس العروبة ، وعند الاضطرار نلجأ الى الاحتياطي ، الى شعبنا الطيب الشجاع كله .
منذ الساعة السادسة من صباح اليوم التالي كانت قيادة الفصيل مطوقة بالشبان المسلحين وكذلك المحكمة ودائرة القائمقام ، حاول قائد فصيل الدرك ان يتمرد فأفهمناه بالتي هي احسن انه من الافضل له ان يلزم الهدوء ولا يتحرك فنحن لا نريد منه وبفصيله اي سوء، ليس هو المقصود ولا رجاله . انما نحن نستعمل حقنا المشروع في الدفاع عن أنفسنا كمواطنين، بالدفاع عن حقنا في الحرية والمساواة وفي الحصول على العدالة المتحررة من كل تسلط ، او طغيان ، وعدناه بأننا لن نكون البادئين ولكن عليه ان يضبط رجاله فلا يكونوا هم البادئين ايضا . وكان لنا بين رجال الدرك رفاق ملتزمون وانصار معاونون .
وحين وصل القاضي الى المحكمة في تمام الساعة الثامنة شاهد المسلحين يحيطون ببناء المحكمة ويسيطرون على محاور الطرق المؤدية اليها . وكانت المحكمة في الطابق الاول فوق الطابق الارضي المنخفض قليلا ، فصعد القاضي الدرجات القليلة الخارجية الصاعدة الى المحكمة وصعدت وراءه ،وما كاد يجلس وكاتبه الى جانبه حتى كنت امامه وطلبت اليه فتح المحاكمة بدعوى الاعتراض على رفض الترشيح . وبكل هدوء ظاهري رافقه اضطراب داخلي تدل حمرة الخدين والجبين وانتفاخ الاوداج بدأت المحاكمة .
أتمنى ان يكون ملف تلك الدعوى محفوظا بين محفوظات المحكمة ليعود اليه من يشاء ، فهو تحفة فريدة من نوعها ، ما قلته واصررت على تسجيله في ضبط المحاكمة ذلك اليوم اقرب الى الخطبة السياسية والفلسفية الاجتماعية الثورية ، ومناقشة حقوق المواطن والجماعات منه الى المرافعة القضائية العادية ، لم

يكن ممكنا ـ لو كانت الظروف طبيعية ولو كان القاضي حياديا ، ولو ازلنا الضغط العشائري ، لم يكن ممكنا لأحد ان يحكم ضدي لمجرد سماع تلك الحجج التي ادليت بها ، لانني كنت ادافع عن وجود الشمس والشمس تملأ الوجود • كان الحكم مضمونا لمصلحتي بصورة طبيعية ، وبسبب عدم توافر الحياد لجأنا الى هذه الاجراءات •

واصدر القاضي حكمه بقبول ترشيحي للنيابة عن قضاء صلخد فرجوت منه ان يسلمني صورة مصدقة عن خلاصة الحكم قبل ان اغادر المحكمة ، اراد لي ان يعتذر بسبب ما لديه من دعاوى اخرى وبان هذا التصرف لم يكن تصرفا معتادا • فقلت له :

ان الدعوى كلها غير عادية ، فانصاع وسلمني النسخة ممهورة بخاتم المحكمة وتوقيع القاضي الكريم ، فشكرت له شجاعته في أحقاق الحق وخرجت من المحكمة ونزلت الدرج مشيرا الى الرفاق بأن كل شيء على ما يرام ، ورفعنا الحصار عن الدوائر الثلاث وذهبت فورا الى دائرة البريد فأبرقت الى الصحف في دمشق والسويداء ، واتصلت هاتفيا بآل ابو عسلي في السويداء اذ كانوا يعقدون اجتماعا شعبيا كبيرا يتداولون فيه الرأي في الطرق الممكن اتباعها بشأن ترشيح الاستاذ جميل ابو عسلي ، وبشرتهم بحصولي على الحكم

سعيد ابو الحسن

من الأرشيف

الفلاّح وحبّات القمح

د. جميل صليبا

هل نظرت الى الفلاح ، عند غروب الشمس ، كيف يرفع يده الى السماء وهو يبذر حبات القمح ؟ . ان يده لترسل الى الافق الاعلى ظلال الأمل ، وتطبع على هام الافلاك صورة العمل . انظر اليه انه يطأ بقدميه تراب الارض ، ويغير باحلامه مجرى النجوم . لم يدفن حبات القمح في بطن الارض الا ليحييها . فكأن الارض قبر تنبعث منه الحياة وكأن الفلاح حاكم تخضع العناصر لأمره .

انظر الى الشمس كيف هبطت الى الافق . انها تكاد تغيب من وراء الجبال . ها ان ظل الفلاح صار عظيماً . انه اعظم من الارض ، لانه قد ستر السماء . كلما قربت الشمس من الجبل عظمت ظلال الاشياء ، وتغيرت الوانها ، وتقرب الناس من نهاية العمل .

لقد غمرت الشمس سطح الارض بموج من الذهب فاصبح الفلاح غنياً ، لان معوله وآلته وكيسه وثيابه قد انقلبت الى ابريز خالص . الم تر كيف رفع رأسه وشمخ بانفه ونظر بعينيه المطمئنتين الى الافق ؟ . انه شاعر بقيمة العمل الذي انجزه . انه عالم ان حياة الملايين من الناس متوقفة على نتيجة جهوده ونجاح اعماله .

لم اجد في صورة المساء اجمل من الفلاح ، لانه اجمل من الشمس ، اجمل من سنابل الذهب ، لا بل اجمل من السماء المظلة والارض الساكنة

ليس الفلاح ابن الطبيعة ، بل الطبيعة بنت الفلاح ، لانه قد قلب الارض ، وغير صور الاشياء . نعم ان الانسان لم يبدع العناصر ولم يرتب الاكوان ولكنه اثر في تركيبها وتبديلها ونقلها من طور الى اخر ، حتى كاد كل ما في الطبيعة يحمل اثراً من عمله واختراعه . فكم ارض قفراء قلبها الى جنة غناء ، وكم رابية حولها الى سهل فحفر فيها الانفاق والترع ، ثم غرس فيها الاشجار فآتت اكلها ولم يحفل بالراسيات من الجبال ، بل تسنم الاطواد والاعلام وجعلها سهلة المرتقى ، وأنشأ فيها



الفلاح انشودة الطبيعة

المسالك والمجاري وبنى الحصون والمعاقل ثم سخر اليم كما سخر الارض والجو وتغلب على الطبيعة ·

وهذه الاكوام الذهبية من القمح ، الا تدل على قوة الانسان وسلطانه ، ألا تدل على الجهود التي بذلها الفلاح في تسخير الطبيعة ؟

تقول الاساطير ان الناس تعلموا زراعة القمح من (اوزيريس) اله المصريين ومن (سيرس) ابنة زحل ، لان هذه الالهة الشقراء تسهر على حصاد القمح كل ايام السنة · ولو بحثت عن تاريخ القمح لما تبينت له في ظلمات الزمان ابتداء · فهل زرعته (سيرس) في حقول (الاتا) في سيسيليا ، ام هل انبته (اوزيريس) على ضفاف النيل لاول مرة · لم ينبت القمح بقوة اوزيريس ولا بعناية سيريس بل نبت بقوة الفلاح · ولست تجد على وجه الارض قمحاً ينبت بنفسه على الحالة الطبيعية ، بل كل حقل من حقول القمح يحتاج الى جهد انساني عظيم · ولا تتحسن زراعته الا اذا كان العمل دائماً · ولعله احسن النباتات دليلاً على ضرورة استمرار الجهود وسرعة الانتاج · فمن فلاحة الارض الى بذر القمح الى حصاده ودرسه كل ذلك يقتضي عملاً سريعاً دائماً ·

ثم ان الفلاح يرسل القمح على اجنحة البخار السريعة ، الى اقصى مناطق الارض · فيملأ به المخازن والمعامل · ان اختلاف الاقاليم ، وتنوع صناعات البشر وحاجة بعض البلدان الى القمح قربت المناطق بعضها من بعض فتولد من ذلك كله تجارة دولية ومصالح مشتركة عديدة · وربما كانت هذه المصالح اساس السلام العالمي لانها وحدت عواطف الامم · الا ان القواد لا يزالون يتطاحنون في سبيل الاسواق التجارية ويحولون اكوام الذهب الى رماد ، والفلاح غير عالم بمصير حبات القمح التي انتجها · لو جاء الفلاح الى المعمل لاعجب بمصير القمح الذهبي الذي باعه لعملائه · ولو بعث اليوم اهل العصر الزراعي لتحيروا مما وصل اليه الفلاح في عصر الصناعة الكبرى من الرفاه والراحة ·

لماذا هجر الفلاح حقله واستبدل به المعمل؟ لم يأت الى المدينة باحثاً عن مصير حبات القمح ، بل جاء يطلب الرفاه هارباً من الجوع والفقر والألم · ولو وجد الرفاه في القرية بالقرب من اكوام الذهب لما ترك الحقل · فاذا اردت ان يبقى الفلاح في حقله فاقلب قريته الى مدينة ، وابن في حقله معملاً وجهزه بكل وسائل الرفاه ، واستبدل جمال الطبيعة الساذج بجمال الفن الساحر · ان الفلاح الذي يسير الآلة اعظم من الفلاح الذي يبذر القمح بيده · والقمح في المعمل لا يقل جمالاً عنه في الحقل لان الجمال الحقيقي هو جمال الانسان لا جمال الطبيعة ·

ان الحبة لا تدخل بطن الارض الا بقوة الانسان وايمانه · ولم تكتس اكوام القمح بهذا اللون الذهبي الا لانتقال آثار الحضارة من جيل الى جيل · كل حبة من حبات القمح تدل على عمل الانسان وجهوده وايمانه بالحياة والقوة والتقدم · فهو يثق بصناعته ويؤمن بنفسه وبالمستقبل ويعتقد ان الارض التي قلب ترابها ستخضع للقيود التي قيدها بها · فالقمح لا ينبت بقوة الطبيعة ، بل ينبت بقوة الفلاح · والفلاح لا يستفيد من قوى الارض ، بل من قوة الصناعة الانسانية التي خبأتها الاجيال في التراب فكأن المخترع الذي اخترع المحراث لا يزال اليوم الى جانب الفلاح يحرث الارض معه · وكأن المدنية كلها موجودة في كل حبة من حبات القمح ·

جميل صليبا

٥ — وكلهم لصروف الدهر اقران

قال حميد بن مالك :

ما بعد جلق للمرتاد منزلة	ولا كسكانها في الارض سكان
فكلها بمجال الطرف منتزه	وكلهم لصروف الدهر اقران
وهم - وان بعدوا عني بنسبتهم	اذا بلوتهم بالود - اخوان

سيادة العرب على صقلية

معروف الأرناؤوط

(لقد خص الكاتب معروف الارناؤوط بطاح مكة ورياض دمشق وعاصمة الرشيد والفردوس الاندلسي بفيض أدبه الضخم . وأراد أن ينقل تأملاته ومشاعره بين صقلية والقاهرة فرسم الخطوط الاولى لهذا الفصل من روايته ـ القاهرة ـ ولكن المنية وافته قبل أن ينتهي منها .. وبقي هذا الفصل يتيما في ساح نتاجه الغزير الخالد .. بين رواياته الرائعة ..)

لما بويع اوتون الثاني من اسرة الساكس الالمانية امبراطورا على المانيا وملكا على ايطالية وبعض الممالك الاوروبية ، زين له الحلم وهو الشاب المحارب ان يترسم خطى ابيه اوتون الاول ويجري على سننه فيقوى اواصر الصداقة وروابط المودة مع الامبراطورية البيزنطية رجاء ان يتفرغ لمحاربة الدولة الفاطمية التي انبثقت من صميم الدولة العربية في القيروان وكان سبيل اوتون الثاني الى تحقيق ابعد غاياته ومقاصده ان يتزوج الاميرة تيوفانو كريمة امبراطور القسطنطينية اعدى عدو للدولة الفاطمية الناشئة . وقد كانت سنة اثنتين وثمانين وتسعمائة لميلاد السيد المسيح بداية ذلك العراك القاسي الذي احتدم بين امة عربية باسلة لم تكد تفرغ من تأسيس مدينة القاهرة حتى هبت للذود عن مراكزها ومحارسها عند سواحل البحر المتوسط وبين الامة الضخمة التي قدرت على التبسط في معظم اوروبا ماخلا الجزيرة البريطانية .

وليس من شأننا ان نكترث لبعض مزاعم المؤرخين حول الصلات التي كانت تربط عرب افريقية وصقلية ومصر بشيوخ السياسة في الدولة البيزنطية ، فان هذه المزاعم التي تصورها مؤرخون متعصبون في ايطالية وجرمانية لم يكن القصد منها غير التقليل من حماسة الشعب العربي لحريته وغيرته على ميراثه من الفتح والالمعية وقد كان هذا العالم الفريد الذي نشر اعلام ثقافته المتسامحة على جميع افريقية وفي جميع اسيه وفي بعض سواحل ايطالية الجنوبية واليونان لايفكر في اواسط القرن العاشر الا في تنضير العاصمة الجديدة التي بناها على ضفاف النيل وامتعها بجنى الحضارة التي اثلها في اسبانية وافريقية . كلا ، ليس من شأننا ان نعرض لهذه المزاعم لاننا نفرق من الاساءة الى التاريخ الذي خلد في صفحاته اجمل صورة لكفاح العرب في سبيل ثقافتهم التي نشرت منائرها على شاطىء صقلية ثم في سبيل منع الشعب الجرماني الذي يسيطر على اوربة من العبث بسيادة الامة العربية في البحر القديم الذي ظل طويلا مثارا للتنافس بين الرومان واليونان .

يقول غوستاف ستلمبرجر عضو المجمع العلمي الفرنسي انه لم يكن للامبراطور الجرماني الذي كان ينزل في بعض ايطالية بد من استصفاء شبه الجزيرة الايطالية جميعا وطرد العرب منجزيرة صقلية فنزل في ترانتو وجعلها قاعدة لمهاجمة جزيرة صقلية التي كانت ترجع في امورها وشؤونها الى القاهرة عاصمة الدولة الجديدة وريثة القيروان وعلى الجزيرة من ذلك العهد امير من الاغالبة يكنى ابا القاسم وكان سيد جيله في نضرة اخلاقه ونضرة اعراقه وقد صوره مؤرخو الجرمان والرومان في صورة اله الحرب والنصر عند العرب ولكن ابا القاسم الامير الشجاع لم يفته شيء من مقاصد عدوه الضخم فاعد العدة للقاء جحافل الجرمان وكتائب الرومان وحشد لهذا الامر فرسان المغرب اصحاب البرانس البيض حتى ملا بهم جميع سواحل كالابرية ٠

كانت شواطيء بلدة روسانو الصعيد الاول الذي تلاقى عليه ابناء جرمانية الشقر وابناء العربية السمر فلما تعالت اصوات الفريقين في ذلك المكان النابي الذي تلتف به الجبال الواعرة ومياه البحر الزاخرة خشي الجرمان الذين يلبسون الحديد من ذوائب رؤوسهم الى مواطيء اقدامهم ان يقارعوا ابطال المغرب فهموا برجعة لولا انهم ربطوا جاشهم للحادثات ثم خاضوا الغمار بقلوب لاترعش ولا تميد ثم اذا الليل يظللهم ويظلل فرسان المغرب ثم اذا هم جميعا ينغمسون في دجناته حتى اذا طلع عليهم الفجر اقفرت ضاحية روسانو من حماتها العرب وتعاورت اولئك الذين لبسوا الحديد من سلائل الرومان والجرمان دهشة عظيمة اذ سرعان ما أدركوا قدرة عدوهم الصليب الشديد على الانسحاب من ميدان لم يجد العرب على صعيده ما يكفل لهم النصر على عدوهم الضخم ٠

واحس اوتون الثاني ان الجحفل الجرار الذي يقوده ابو القاسم قد وارته شوامخ الجبال عند الجنوب الغربي من روسانو وانه مسوق الى معاناة ظروف واحداث لاتقوى جحافله وفيالقه على مصاولتها ومغالبتها فاجمل به ان يتعقب ساقة ابي القاسم لعله يظفر بما لم يظفر به في الملحمة الاولى ثم اذا هو ينزح عن روسانو بعد ان ولى عليها عظيما من عظماء الجرمان هو مستشار الامبراطورية ديتريش سيد مقاطعة متز وغطريفها ونزح معه رجال الحاشية ونبلاء جرمانية واشراف ايطالية ولم ينس ان يصحب زوجه تيوفانو وكان عليه ان يتحمل لذع الشمس في ساحل يمور بالدفء والحرارة وان يصعد في اعالي الجبال ويجوس خلال الحزون والاودية باحثا منقبا عن ذلك البطل الذي ملات صورته واسمه جميع مدن البحر المتوسط من سالونيك الى صقليةالى الشواطيء الشاخصة الى المحيط الاطلسي ٠

يقول ابن الاثير مؤرخ العرب ان ابا القاسم شرع في الزحف في مستهل شهر ربيع الاول سنة احدى وسبعين وثلاثمائة لهجرة سيد قريش اي في اليوم الاول من شهر ايار سنة اثنتين وتسعمائة لميلاد السيد المسيح ٠

وكان على ابي القاسم ان يرقي جبال كالابرية عند ساحل البحر متريثا مترفقا حتى ينازل الجحافل الجرمانية والايطالية وهو قد تنكب ان ينازل عدوه في روسانو على الرغم من ان قواده كانوا يلحون عليه في المنازلة ولعله كما قال مؤرخو زمنه اثر ان ينزح عن روسانو لان هذه البلدة الصغيرة ما كانت تصلح لكره وفره ٠

ثم اخذ يبث اساطيله في البحر فراحت تذرع تلك الشواطيء المنتشرة عند سفوح الجبال والتي كانت تلقي بظلال هضباتها ومرتفعاتها الى الماء بينما كانت جيوشه وجحافله لا تمل ان تذرع الارض والفضاء وليس لدى اوتون الثاني اسطول يصارع اللجة الثائرة لان السيادة البحرية على البحر المتوسط قد استاثرت بها مدينة القاهرة العاصمة الجديدة بعد ان انتزع العرب هذه السيادة من البيزنطيين ثم من الايطاليين ثم من الجرمان ٠ ولا يلبث اوتون الثاني ان يستصرخ الى نجدته حمية الامة البيزنطية فتمده بيزنطية ببعض السفن وعليها ربابنة تعودوا ان يستعملوا النار اليونانية المعروفة بنار جريجوار ثم اذا الامر يضطر امبراطور الجرمان الى الخروج بسفنه الى عرض البحر لعله يستطيع ان يحرق هذه الاساطيل العربية التي لاتمل

ان ترتاد البحر المتوسط من شواطىء اليونان الى شواطىء الرومان غــير حافلــة بحر وقر ، فــوق لجج تهــدر وتزمجر ، وتحت ستار ليل شديد التعبيس ٠

بل لعل امبراطور الجرمان وسيد الطليان اثر ان يقاتل في البحر بعد ان توهم ان عدوه لايستطيع القتال على الارض ، فلقد غرر بالعاهل الجرماني الذي ورث اوربة جميعا ظنه ان الجيش الذي نهد الى محاربته اخذ يفر من المعركة وان هؤلاء الفتيان السمر الذين تجلببــوا بالطيالس البيض ليس لهم قوة على مقارعة فتيانه الشقر وربما خيل اليه ان النصر اخذ يضحك في وجهه ويضيء في عينيه ، فاتسع خياله وامتد وهمه فازمع ان يكــون على راس الخميس العرمرم وهو لايحتاج الى اكثر من ان يعتزم ثم لايكاد يثخن في عدوه حتى يتقاصر ذلك العـدو ويتصاغر ثم يعود وعلى كفه اثر من دم ابي القاسم وربما كان من بواعث تماسته وعوامل شقائه كما قال مؤرخـو عصره انه كان لا يعلم شيئا من اساليب العرب في القتال وانه توهم الرماد في قلب امة حرقتها بالشموس انتصاراتها في المحيطات الواسعة وفي الصحراوات الشاسعة وتحت كل سماء وفوق كل ارض ثم لاتلبث المعركة الطاحنة ان تنشب على الشاطيء فيختلط صليل السلاح بهدير الموج قبالة ساحل ستيلو في الطرف الجنوبي الى الغرب مـن سكولاك عند موضع يعرف بالعمود وفي صباح اليــوم التاسع من شهر ربيع الاول سنة احدى وسبعين وثلاثمائة للهجرة وهو العاشر من ايار سنة اثنتين وثمانية وستمائة للميلاد امر ابو القاسم جيوشه بالكف عن الانسحاب وقد .لي ليقاتلن الى النهاية سادة جرمانية وغطاريفها الذين كانوا يتدفقون في اثره تدفق السيل ٠

وعرس جيش افريقية اللجب حيال شاطيء البحر بعد ان وطن قادته نفوسهم على الاستهانة بارواحهــم واحب امانيهم ان يلقوا الامبراطور في الطريق وان يمنعوه ملا يبلغ وطره من الزحف الذي شرع فيه ثم هم يعودون الى صقلية للاحتفال بمولد سيد قريش بل سيد العالم في اليوم الثاني عشر من شهر ربيع الاول ٠

يقول ستلمبرجر عضو المجمع العلمي الفرنسي ان تاريخ المانية في جميع ادواره وعصوره لم يعرف مثــل هذه الساعة في روعتها وخطورتها حتى ليجوز القول ان فرسان الشمال لم يواجهوا منذ معركة بواتية المشهــورة امة اكملت ايمانها وسلاحها كالامة التي خرجت مـــن جزيرة صقلية لترد باسم خليفة القاهرة هذه الجحافــل الجرمانية التي استفزها عاهلها الفتى واحمسها حتــى جعلها تعتقد انها تستطيع ان تضيف الى انتصاراتهــا في اوربة انصارات جديدة في ارض عليها طابع القيروان في أزهى عصور ثقافتها فقد كانت الحماسة للدين وللشرف وللوطن تفور وتثور في صدور فتيان افريقية السمــر بمثل غليان البغض وثورته في صدور سلائل الجرمــان الشقر ، وكان كثير من الاشراف الذين تفيأوا رايات اوتون الثاني لايؤمنون بالرجعة الى منابتهم الاولى ولا يصدقون ان فجرا جميلا سيضحك لهم عند شواطىء ايطاليا ٠

ويقول ستلمبرجر في وصف حماسة الجرمان ان فارسا من اللورين هو الشاب كونراد نجل الكونت رودلف امير مقاطعة متزكان قد وهب جميع املاكه وامواكــه للامبراطور رجاة ان ينفق ريعها على هذه الحرب التي طوت في سبيلها شبان جرمانية فولاه الامبراطور قيادة الكتيبة التي تحمل رايته اعترافا بجميله واقرارا بصنيعه

وترادفت كتائب الجرمان على الحومة وفي روح اي جندي من جنودها تلك الغلظة التي تفرد بها العنصر الجرماني بين شعوب اوربة ولم يكن من الهين اليســير على هذه الكتائب ان تربح المعركة في عنفوان الامر لان هؤلاء العرب الذين عقدت شجاعتهم وحماستهم ما بين المشرق والمغرب ، والذين حملوا الى شعوب العالم جنــي حضارة رحيمة كريمة لم يكونوا اقل حماسة من اوائلهم الذين تقدموهم على هذه الارض ، فلقي الجرمان منهــم ما فتت في اعضادهم وروعهم ان هؤلاء الذين لوحتهم شمس افريقية كانوا يغنون اغاني شعرائهم وانهم الى ذلك كانوا يقبلون على الموت في صورته الجاهمة وهــم يضحكون لصورته ويهشون لطلعته ولا يخيفهم انه جعل ينتظر اليهم بعينين يابستين جامدتين ٠

يقول ارنست لافيس المؤرخ الفرنسي المعروف في وصف هذه المعركة ، ثم تراءى للجرمان ان الامبراطور سيبلغ وطره من النصر لان جحفلا كان قد تغلغل في وسط كتيبة من كتائب المغرب وقد ظل الجحفل الالماني يدفق كالسيل حتى بلغ في دفقه رايات الامير التي نهد للدفاع عنها نبلاء من عرب افريقية والمغرب تحت قيادة ابـــي القاسم وكان طبيعيا وقد صاقب العدو الجرماني خيمـة

الامير ان تشتد سورة المعركة حول تلك الرايات المقدسة وان يهلك تحت النقع فرسان ما تعودوا ان يموتوا كما يموت الجبناء ، بل كان طبيعيا ان يعطي الامير نفسه اروع دروس الشجاعة وانبلهـا ثم ان يموت كمـا مات اوائله فيزيد موته في عدد اولئـك الشهداء الذين ماتوا زلفى لايمانهم ومسايرة لوطنهم ٠

ولعل الاستاذ غوستاف ستلمبرجر هو المؤرخ الفرد الذي وفق الى وصف هذا الموت المؤثر فلقد قال ان ابجيل الاوربي الذي فتح عينيه على نور القرن العاشر قد قبس من حياة ابي القاسم ومن موتهكلشعائر البطولةوالاريحية

ولكن موت الزعيم الغطريف على تلـك الصــورة البارعة لم يثمر اليأس في نفوس اصحابه ولم يثمر الامل نفوس اعدائه فلقد نذر اولئك الفرسان الذيــن صحبوه في طوافه الشجي ان يغلبوا عدوهم او تبتلعهم لجج البحر المتوسط حتى اذا عاشوا او ماتوا لقي العربي الناشيء في حياتهم وموتهم امنيته الغالية من اغراض الشرف والمجد ولم يكونوا في حاجة الى الاطالة فيالتفكير والتامل فزالوا عن الميدان يحملون على مناكبهم رفات الرجل الذي ملأت حياته النبيلة كل البحر المتوسط مـن شواطىء اليونان الى شواطىء الرومان ٠

وخيل الى الجرمان ان المعركة كانت نصرا رائعا عقد الريحان والورد على مفرق امبراطورهم وان جرمانية لن تبطىء في توحيد ايطالية تحت سيادتها من ساحـل صقلية الى رافين على ساحل الادرياتيك ، ولكن هؤلاء الجرمان الذين اثملهم رحيق النصر كانوا يقاتلون وعليهم حديد والفولاذ وكان طبيعيا ان لايطيقوا الحديد والفولاذ لان شمس ايار قد رمتهم بالحريق في ساحل تلفحه رمال افريقية بنار ذات صليل وليس ثمة مشابهة بينهم وبين اعدائهم ، فلقد روض العرب منذ نعومة اظفارهم جماح الشمس ومرنوا على الهاجرة والفوا ان يقاتلوا عدوهم تحت السماء الافريقية غير مكترثين للرياح البوارح ترمي بها الرمال الى ما يجاورها من الشطآن والخلجان ٠

ورأى الامبراطور ان في ميسوره ان يلحق بالفلول المتراجعة وخيل اليه ان النصر الكامل لن يفلت منه مجد في اثر عدوه ، وكان عليه ان يسلك طريقا واعرة يجاورها البحر من الشمال وتتاخمها الجبال الكابية من اليمين وتشقها اخاديد ينبطح على حفافها الماء من غير ان يدخلفي وهمه وتصوره ان طريقا من هذا النوع الشديد العنيف ينتفع بها عدوه ولا ينتفع هو منها ، وغاب عن ذاكرته وخاطره ان ابناء الذين قاتلوا في بواتيه كانوا قد اتقنوا الدرس وانهم خلفاء بشرف الاباء والاجداد ، ثم حدث ان استبدل اعداؤه اساليب المهاجمة والمقارعة باسلوبجديد طريف لا يعرفه الجرمان واحلافهم الطليان ، وبيان ذلك ان رفاق ابي القاسم كانوا أقدر محاربين على تحويـل انتصارات عدوهم الى هزائم ، فلقـد كان من السهل اليسير ان يتذروا الجبال الشم وان يرصدوا عدوهمعلى الربوات والهضبات وأمنية امانيهم ان يثاروا لزعيمهم واميرهم من قاتليه ٠

وكانت جيوش اوتون الثاني تسير في محـــاذاة البحر ومعها اعلامها ورأياتها وكان ذلك في اليوم الثاني عشر من ربيع الاول وقد ملأ العرب ذرى الجبال وراحوا يعيدون ذكريين اثنتين ذكرى مولد نبيهم وذكرى مولد

مدينة القاهرة عاصمتهم بعد القيروان ثم جعل ذلك العدو الذي انتبذ الساحل يتراءى لهم وهم على المرتفعات والهضاب فتساقطوا عليه وهم يغنون اغنيتين ، اغنية الميلاد الذي ضاء في بطاح مكة واغنية الميلاد الذي انبثقت منه قاهرة المعز ، واصواتهم تملأ الحزن والسهل والجبل والبحر ثم اذا عدوهم المتكبر قد اخذته رعدة خوف فلم يستطع ان يصاول او ينازل فقد عضده ان هؤلاء السمر الذين نذروا نذرهم لله وللوطن طفقوا يهاجمونه في طلائعه وينازلونه في مؤخرته ويصاولونه عن يمينه ، فأما شمال الجرمان فقد كان منفتحا على البحر وليس لديهم اسطول يدفع خطرا عنهم على حين كانت سفن صقلية ومصر والمغرب تملأ عرض الدأماء ٠

يقول ستلمبرجر ان المعركة الثانية التي خاض الجرمان غمارها كان مقدرا لها ان تقع بعد يومين اثنين من وقوع المعركة الاولى ، وقد جرت احداثها وظروفها في موضع ليس بعيدا عن بلدة كوترون عند ناحيتي الجنوب والغرب بجوار موضع يعرف بموضع العمود وكانت اشنع مذبحة شمل خطبها اولئك التعساء من محاربي الجرمان والطليان فلقد هلك تحت السماء التي تبعث النار والحريق وبين مروج تلك الجبال النائية والبحر الذي يمور ماجح كانها السعير ، جيل كامل من الفرسان لم تكن له قوة يغالب بها شجعان صقلية وابطال المغرب ، وابلغ القصص المؤثرة التي كتبها كتاب ايطالية والمانية في وصف هذه التعاسة هي القصة التي تضع امام عيون الناس صورا شاحبة تمثل فرسان الشمال والجنوب وهم يلقون بانفسهم الى البحر السائل الفائر فرارا من عدو شجاع لايعرف ان يلين لعدوه وقد استمرت المعركة الليل بطوله فلم يكد الفجر يطل حتى كانت الارض واللجج التي يطفو عليها الحريق قد ابتلعت اينع ازهار تفتحت في حقول الجرمان والطليان وبين النبلاء الذين ادركهم الموت في البر والبحر وعلى حضيض الجبل الدوق ريشار حمل سلاح الامبراطور والكونت او تو زعيم المحاربين مرنك والماركيز غونتبيردي ميسنى والماركيز برتبولد والكونت عنري فون اغسبورغ والدوق فارنرفون غولدا والكونت جيهار وشقيقة ازولين والبارون فون بوركار والامراء كونراد وارمفريد وأرنولد ونبلاء اخرون لايعرف سماءهم غير الله ٠

يقول كاتب الماني في وصف هذه المأساة المحزنة :

لم ينج من سيوف سمر افريقية واحد من كل اولئك الشبان الذين كانت شبيبتهم زينة في جبين وطنهم وزهرة في حياته فلقد طوى البحر في لججه كل هؤلاء الذين فخرت بهم جرمانيه الشقراء وكانوا اعز الناس على قلب امبراطورهم ويقول ستلمبرجر ان بين الذين هلكوا من عظماء طرمانية عظماء من ايطالية من المعهم وانضرهم البرنس لاندولف امير مقاطعة كابو وهو الابن البكر للدوق راندولف المعروف بصاحب الرأس الحديدي ثم الدوق رنالدو من اسرة سفوررزا العريقة والماركيز فاديبورتو والكونت جويدودي ساسا والدوق تراسموند دي فوشي وجميع هؤلاء كانوا حماة ايطاليه في كهولة القرن العاشر ٠

واما الاحياء الذين نجوا من هذه المذبحة فقد اهلكت بعضهم الامراض والاوبئة والتعب والشرود واليأس

وارسل بعضهم مصفدين بالاغلال الى اسواق بالرمو عاصمة صقلية ثم الى اسواق المهدية وبعث العـــرب الظافرون بقسم كبير من عظماء الاسرى الى الاسكندرية والقاهرة ولم يقدر لواحد من هؤلاء ان يفلت من الاسر ويعود الى المانية او الى ايطالية الا لقاء فدية امـــا الامبراطور اوتون الثاني فقد كان الرجل الوحيد الـــذي نجا من الموت ذلك انه رمي بنفسه الى البحر ومعه ابـن اخيه اوتون الاول دوق بافاريه وبيان ذلك أن سفينة صيد بيزنطية كانت تطوف حول شواطيء صقلية فما عتم بحارتها ان شهدوا الامبراطور والدوق وهما يصاولان الموت ويصارعانه فسارعوا الى انقاذهما وردهما الـــى المانية التي لبست الحداد على قتلاها خلال شهور طويلة ٠

حدث هذا كله في ضاحية ستيليو في اليوم الثالث عشر من شهر ايار سنة اثنتين وثمانين وتسعمائة لميــلاد المسيح وهو اليوم الثاني عشر من شهر ربيع الاول سنة احدى وسبعين وثلاثمائة لهجرة سيد قريش ٠

معروف الارناؤوط

